الأرواح المتمردة

لجبران خليل جبران



دار العرب
للبستاني
٢٠ ش الفجالة ـــ القاهرة

الأرواح المتمردة

جبران خليل جبران

« إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكر العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران .. »

دار العرب
للبستاني
٢٨ ش الفجالة ـــ القاهرة

« إلى الروح التى عانقت روحى . إلى القلب الذى سكب أسراره فى قلبى . إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفى ارفع هذا الكتاب »

(جبران)

مقدمة وانتقاد

بقلم صاحب جريدة المهجر

يقول لنا المثل السائر إن لكل جديد طلاوة وهو قول ينطبق على كل شيء ماخلا الأفكار في المسائل الاجتماعية . فالناس لايحبون استبدال عادة من عاداتهم بغيرها ولا يقبلون ملاحظة على طريقة من طرق معيشتهم لكنهم في كل الأحيان يجدون أنفسهم سالكين رويداً رويداً في السبيل الذي ما أحبوه وبموجب الملاحظة التي لم يقبلوها.

من ذلك الحقائق العلمية التي كلما شاع أمر واحدة جديدة منها ينكرها الناس أولاً ثم تراهم بعد حين أخذوا يعتقدون بها ويستعملونها . ومن ذلك الأزياء والأخلاق التي يظن كل منا أنه تابع فيها آثار أسلافه بكل تدقيق وضبط ويفتخر بكونه محافظاً عليها في حين أننا نعلم أن كل عصر من العصور مستقل عن سواه بعاداته وأخلاقه

ماهي الأفكار الجديدة ؟ كلما قام أديب في عصر وقال قولا مخالفاً للنظام الجاري يقوم بعض معاصريه وينكرون عليه كون ذلك القول جديداً . يقولون إن فلاناً سبقك إلى هذا

الفكر ولم يستطع اثباته وتأييده ، أما عند كاتب هذه المقدمة فالشيء لايكون قديماً أو جديداً بحد ذاته لانه كائن مستقل عن الزمان والمكان . لكنه يكون كذلك بالنظر إلى من يسمعه أو يراه. ماليس جديداً عندك ربما يكون جديداً عندي . وما هو قديم عند كلينا ربما يكون جديداً عند كثيرين غيرنا

والافكار الجديدة هي قسم من الاشياء التي تدخل خلايا الدماغ في رؤوس البشر عن طريق العين والاذن والفم والانف واليد . عن طريق الحواس الخمس . وهناك تتجسم وتتصور ثم تخرج لابسةً الثياب التي أعدتها لها نفس الانسان من طبيعتها ومواهبها . هذا يرسم لنا رسماً وذاك يسمعنا نغماً وذاك يكتب لنا كتابةً وغيره يسمعنا كلاماً وهلم جراً

وهي أيضاً من الاشياء التي تؤثر على ناظريها وسامعيها والشاعرين بها تأثيراً لا يمكن أن يرد أو يعارض فمتى سمعت بفكر جديد لاتطمعن بمقاتلته لان ذلك لايقتله بل اتركه يسير في سبيله والظروف المؤلفة من مجموع آراء الهيئة الاجتماعية تتكفل بقتله ان كان مضراً وباحيائه وتعزيزه إن كان نافعاً

ماهو غرض الفلسفة الاجتماعية ؟ غرضها البحث عن الاسباب الاولية التي تؤول إلى سعادة البشر أو تعاستهم . والفلاسفة يختلفون في استقصاء تلك الاسباب وتصويرها لكن اختلافهم يجيء دائماً بالنتائج الحسنة لان الاشياء تتميز باضدادها . هذا

يشخص أمراض الناس المعنوية ويعترض على عادات وأخلاق لاترضيه ويصف لها أدوية حسبما يقيس ويرى . وذاك يعارضه فى الرأى ويصف أدوية من غير نوع . ولا تكون نتيجة هـذا الاحتكاك والاختبار إلا نبذ الباطل والتمسك بالحقيقي

قارىء هذه السطور سمع بدون شك فى حياته كثيراً من الشكاوى والتذمرات . وربما اشتكى وتذمر غير مرة من أمور مختلفة فى هذه الدنيا لايستنسب وجودها على الشكل الحاضر . وجبران خليل جبران كاتب هذا الكتاب هو مثل قارىء هذه السطور انسان قد سمع ورأى الشكاوى والتذمرات وتأثر أيضاً فى دوره واشتكى وتذمر . فخطرت بباله طرق عديدة لاصلاح مايتمرمر الناس منه ووضع منذ مدة قريبة كتاباً دعاه عرائس المروج ثم أضاف الآن إليه حلقة ثانية فى كتاب الارواح المتمردة وألقى على مسئولية النظر فى كتابه الثانى كما كلفنى مثـل هذا الحمل الثقيل فى كتابه الاول على رغم ما أشعر واعترف به من العجز عن الاتيان بشىء مفيد من موضوع لا يكتفى بالنظر السطحى اليه بل يقتضى الدرس والتفكير مدة الليالى الطويلة التى نتج هذا الكتاب عن طول السهر فيها

جميع التعاليم الجديدة تموت إن كان مصدرها الخيال والوهم وتحيا إذا كانت منبثقة من سر خفى من أسرار القلب البشرى . وكانت صدى العاطفة الوضعية التى أوجدها الله فى النفس من

حينما خلق النفس وصورت للناس بكلام صريح تلك الحاسات التى يشعر بها ويعرف حقيقتها كل بشرى لكنه يخاف من قريبه فلا يظهرها لقريبه

ومعلوم أن لكل عصر مسائل خاصة به تشغل أفكار بنيه . ومسئلة المسائل التى تحوم الفكرة البشرية فى أيامنا هـذه حولها على غير معرفة منها تتألف من ثلاثة أشياء : البيت (العائلة) والكنيسة (الدين) والمحكمة (الشريعة) وسوف تبقى الفكرة البشرية حائمة حتى تدرك القصد والسر من هذه الاشياء الثلاثة فتبلغ بواسطة إدراكها هذا احضان السعادة والسعادة هى السبب الاولي الذى نحيا ونموت من أجله

ثم اننا لا نقدر على بلوغ السعادة بواسطة ما يحيط بنا من الصور والاشباح والاصوات والعقائد بل بواسطة العاطفة النفسية الوضعية الكائنة في أعماق الفرد الواحد . فعلى عاطفة الفرد الواحد بنى المؤلف تعاليمه لان متاعب الحياة كلها فى هذه الدنيا ناتجة عن اختلاف ذلك الفرد الواحد مع زوجته فى البيت وكاهنه فى الكنيسة وشريعته فى المحكمة . وفوق ذلك لا ريب فى أن استسلام الانسان الذى وُجد حرًا لافكار غيره وعقائد أسلافه قهراً وجبراً هو أكبر أسباب تعاسته لان الانسان يرضى ويتسلى عن كل ما ينتابه من يده لكنه قلما يرضى ويتسلى عما ينتابه من يد غيره

يقول لك الوالد «انت عقوق اذا كنت لا تفعل مثلي» ويقول لك الكاهن « أنت كافر اذا كنت لا تصلي صلاتي » وتقول لك المحكمة «انت مجرم اذا كنت لا تتبع شرائعي» فتجيبهم «ولماذا» فيقولون لك « لأن جميع الناس يفعلون ذلك » فتصرخ متوجعاً «ولكن جميع الناس تعساء وأنا أريد أن أكون سعيداً» فيقولون لك «كن مثل جميع الناس لأنك لست أفضل منهم » وهكذا أيها القارئ يظل البشر عائشين وأشباح جدودهم حية في أجسادهم كما سيريك جبران في كتابه هذا

ففي الرواية الاولى وهي السيدة ورده قد استمد أفكاره من أوليات يعترف الناس بها لكنهم عن خوف من أشباح الجدود لا يقولون إنهم سيتبعونها . أوليات هي تحرير العاطفة الوضعية في نفس الفرد الواحد من عبودية كل من وما يحيط به وإنقاذ أميال القلب من آراء الناس غير المبنية على قياس صحيح وظاهر والاقرار لكل فرد بحق السعي المتواصل لما فيه سعادته من حيث لا يضر بالآخرين ، فالذي يقرأ السيدة ورده يظن أن جبران مثلا يخالف شرائع الله ويحسّن للناس حالة المرأة الخائنة التي طلقت زوجها لتقترن بغيره . يظن كذلك لأنه لا يكون عارفاً من معنى قولنا (المرأة الخائنة) ومن معنى كلمة (زوجها) الا ما قال له بعض الناس إنها تعني ....

يقول لنا السيد المسيح في انجيله المقدس « ما ازوجه الله لا

يفرقه الانسان . ونحن بكل احترام ننحني أمام هذا القول المقدس ونسلم به تسليما مطلقاً لا يقبل الشك ولا الارتياب . لا نحاول تفريق ماأزوجه الله ولكن كم من زيجة في هــذا العالم الفاسد نُعيذُ الله وعدلهُ من ان يكون هو الذي أزوجها . كم من زيجة سعى بها الوالد الشرير والوالدة الظالمة وعقدها الكاهن المغشوش أو الكاهن الكاذب بين رجل وامرأة لا يعرف احد قلبيهما القلب الآخر ولا تمتزج احدى نفسيهما بالنفس التي القيت غصباً عليها

لا يكفي ان يتلو الكاهن امام الشهود صلاة الاكليل المعروفة حتي يصير الرجل والامرأة زوجاً وزوجة ، انما هنالك في أعمق أعماق القلب صلاةٌ يتلوها الله الذي هو المحبة والمحبة هو — وبدون ان تتلى لا يكون ماأزوجه الكاهن زواجاً ولا يجوز فقط بل يجب على الانسان تفريقه : فالسيدة ورده كما سيرى القارئ الكريم لم يزوجها الله بالرجل الذي طلقته من بعد الزواج وقال الناسُ إنها خائنة وكافرة ، إنما أزوجها به الانسان والناس قد عميت بصائرهم حتى ماعادوا يفرقون بين الله والوالدين والكاهن وصاروا كلما بدت تعاسة عائلية في موضع يتمتمون لنا كالببغاء قول الانجيل الذي لا يفهمونه صائحين « ما أزوجه الله لا يفرقه إنسان »

أما حكاية صراخ القبور فهي كلمة صغيرة من ذلك الحديث الموجع الذي ترويه قرائن المحاكم وزوايا السجون — هي خلاصة

قصيرة لما يستره المحامون والقضاة من أحكامهم تحت ستور الالفاظ الكثيرة والجمل الطويلة . والقارئ يتصور بأمير هذه الحكاية أما بربر أغا فى طرابلس وأما الجزار فى عكا وأما ابراهيم باشا المصرى فى سوريا . ولا يتصور قاضياً من قضاة هذا العصر يقول ما يقوله الامير ولكن متى تأمل القارئ بنتيجة عدالة هذه الايام ومتى رأى كثيراً من القتلة وسفاكى الدماء يسرحون ويمرحون وكثيراً من البائسين المساكين يئنون فى ظلمات السجون. متى رأى المجرم الكبير حراً والمجرم الصغير مقيداً مسجوناً عند ذلك يرى ان جبران لم يصور فى احكامه الا الحقيقة الحاضرة فى أيامنا هذه إنما بثوب غير ثوبها الريائى الشفاف من الالفاظ . هى حكاية حسنة لكنها فى عرف الاكثرين مخيفة — مخيفة لأن الحقيقة التى تتخذ لها من أطمار هذا العصر وظلمه ثوباً أسود تكون مخيفة ومزعجة للذين يعيشون فى ظل الغباوة

اما حكاية مضجع العروس فتروى ان عروستها أكثر تمرداً من ابطال سائر الروايات لأنها كسرت القيود الظالمة والضالة قبل أن تفرغ يد الجامعة من حبكها . وفضلت الموت مع حبيبها على البقاء مع الرجل الذى اختاره الكذب والخبث بعلاً لها . ولقد قال لنا احد فضلاء الكهنة لما انتشرت هذه الرواية فى جريدة المهاجر أنها خالية من مقاربة الحقيقة وهذا كما يعلم أرباب هذا الفن من أوجب الصفات لأمثال هذه الروايات . فقلنا له ولماذا .

فقال لأني لا أعتقد بأن كاهناً مسيحياً يكلل عروساً قبل ان يثق منها برغبتها في اقتبال بركة الاكليل ، فقلنا له عفواً أيها الاب الفاضل ولكن نحن نعتقد . . . وليس كل ما تقوله كل عروس في مثل تلك الظروف يعنى ضرورة مايخالج أعماق قلبها . فهنالك العادات والملاحظات وماجرى مجراها

أما حكاية خليل الكافر فهي أشبه شيء بحكاية يوحنا المجنون في كتاب عرائس المروج ، والفرق بينهما هو أن يوحنا مات مغلوباً أما خليل فعاش منتصراً على أعدائه التعساء والمساكين . يوحنا شعر بالنير الثقيل الذى وضعه الرهبان والكهان على أعناق الفلاحين الفقراء فصرخ صوتاً عميقاً محزنا ومات . أما خليل فكان قادراً بحجته القوية على الوقوف أمام الامراء والقضاة ولذلك عاش مغبوطاً في تلك القرية القريبة من غابة أرز لبنان

صعب على فتى أيامنا هذه أن يصدق كل مايحكى عن استبداد بعض الأعيان والكهان في الشعوب التي سبقها الزمان في سيره فرتعت وهي في العصر العشرين في العصور الغابرة المظلمة . صعب على الواقف في النور أن يرى الاشباح المنسابة في أعماق الظلمة . وصعبٌ على المستيقظ ان يروي حقيقة الأحلام المزعجة . ولكن بين فتيان هذه الايام شيوخ عاشوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر . فمن يتهم جبران بالمبالغة والغلو عليه أن يسأل

أُولئك الفتيان الذين بيض الدهرُ مفارقهم فيسمع مايذيب النفسَ ويُدمي الفؤاد .

وهكذا يرى القارئ اللبيب ان كتاب الأرواح المتمردة الذى يجتمع فيه المجنون بالعاقل والمتمرد بالمطيع والمظلوم بالظالم والساقطة بالفاضلة والعاشق بالخلى هو الجدار الثانى من بيت يبنيه جبران وكانت عرائس المروج جداره الاول وعلى جدران هذا البيت يحاول الكاتب الذى جمع ذكاء لبنان الى اجتهاد الولايات المتحدة وأفكار الفيلسوف القاسية والمرجفة إلى ألفاظ المصور الرقيقة والموسيقية أن يرسم عواطف طبقات الناس المتفاوتةمن المستعطى إلى الأمير ومن الكافر الى القديس ويصور حالات الأزمنة والفصول من ظلام الليل الى ضوء النهار ومن نواح الخريف الى اغاني الربيع

(امين الغريّب)

السيدة ورده

وردة الهاني

١

ماأتعس الرجل الذي يحب صبية من بين الصبايا ويتخذها رفيقة لحياته ، ويُهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه ، ويضع بين كفيها ثمار أتعابه وغلة اجتهاده ، ثم ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الأيام وسهر الليالى قد أعطي مجاناً لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبته .

وماأتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها فى منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه ويسربلها بالتكريم والمؤانسة لكنه لايقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحب المحيية ولا يستطيع أن يشبع روحها من الخمرة السماوية التى يسكبها الله من عينى الرجل فى قلب الامرأة .

*
* *

عرفت رشيد بك نعمان منذ حداثتى . وهو رجل لبنانى الأصل بيروتي المولد والدار متحدر من أسرة قديمة غنية موصوفة بالمحافظة على ذكر الأمجاد الغابرة ، فكان مولعاً بسرد الحوادث التى تبين نبالة آبائه وجدوده متبعاً بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم منصرفاً الى تقليدهم في العادات والأزياء الغربية المرفرفة كأسراب الطيور فى فضاء الشرق

وكان رشيد بك طيب القلب كريم الاخلاق لكنه كالكثيرين من سكان سوريا لا ينظر الى ماوراء الاشياء بل الى الظاهر منها . ولا يصغي الى نغمة نفسه بل يشغل عواطفه باستماع الأصوات التى يحدثها محيطه . ويلهي أمياله ببهرجة المرئيات التى تعمى البصيرة عن أسرار الحياة وتحول النفس عن ادراك خفايا الكيان الى ملاحظة الملذات الوقتية . وكان من أولئك الرجال الذين يتسرعون باظهار محبتهم أو مقتهم للناس وللاشياء ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات الوقت عند ما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران

هذه هى الصفات والأخلاق التى جعلت رشيد بك نعمان يقترن بالسيدة ورده الهانى قبل أن تضم نفسها نفسه فى ظل المحبة الحقيقية التى تجعل الحياة الزوجية نعيماً

***

غبت عن بيروت بضعة أعوام ولما رجعت اليها ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد مكمدّ اللون تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الأحزان وتنبعث من عينيه الحزينتين نظراتٌ موجعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره . وبُعيد أن بحثت فى محيطه ولم أجد أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً : « ما أصابك أيها الرجل وأين تلك البشاشة التى كانت تنبعث كالشعاع من وجهك . وأين ذهب ذاك السرور الذى كان ملاصقاً شبيبتك ؟ هل فَصَلَ الموتُ بينك وبين صديق عزيز . أم سلبتك الليالى السوداء مالاً جمعتَه فى الأيام البيضاء ؟ قل لى بحق الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة نفسك وهذا النحول المالك جسدك »

فنظر اليَّ نظرة متأسف أرته الذكرى رسوم أيام جميلة

ثم حجبتها . وبصوت تتموج فى مقاطعه معانى اليأس والقنوط قال : « اذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الأصدقاء الكثيرين فيتصبر ويتعزى ، واذا خسر الانسان مالاً وفكر قليلاً رأى النشاط الذى أتى بالمال سيأتى بمثله فينسى ويسلو . ولكن اذا أضاع الرجل راحة قلبه فأين يجدها وبم يستعيض عنها ؟ يمد الموتُ يده ويصفعك بشدة فتتوجع ولكن لا يمر يوم وليلة حتى تشعر بملامس أصابع الحياة فتبتسم وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ويحدق بك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك باظافر محددة ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك بأقدامه الحديدية ويذهب ضاحكا ثم لا يلبث أن يعود إليك نادماً مستغفراً فينتشلك بأكفه الحريرية ويغنى لك نشيد الأمل فينزل بك مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع خيالات الليل تضمحل أمامك بمجىء الصباح وأنت شاعر بعزيمتك متمسك بآمالك . ولكن اذا كان نصيبك من الوجود طائراً تحبه وتطعمه

حبات قلبك وتسقيه نور أحداقك وتجعل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عشاً . وبينما أنت تنظر الى طائرك وتغمر ريشه بشعاع نفسك اذ به قد فرّ من بين يديك وطار حتى حلق السحاب ثم هبط نحو قفص آخر وما من سبيل الى رجوعه فماذا تفعل إذ ذاك أيها الرجل ، قل لى ماذا تفعل وأين تجد الصبر والسلوان وكيف تحيي الآمال والامانى ؟ »

لفظ رشيد بك الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق متوجع ووقف على أقدامه مرتجفاً كقصبة فى مهب الريح ومد يديه الى الامام كأنه يريد أن يقبض بأصابعه المعوجة على شيء ليمزقه إرباً إرباً وقد تصاعد الدم الى وجهه وصبغ بشرته المتجعدة بلون قاتم وكبرت عيناه وجمدت أجفانه وأحدق دقيقة كأنه رأى أمامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته. ثم نظر الىّ وقد تغيرت ملامحه بسرعة وتحول الغضب والحنق فى جسده المهزول الى التوجع والالم وقال باكياً :

« هى المرأة — المرأة التى أنقذتها من عبودية الفقر وفتحت أمامها خزائنى وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس

الجميلة والحلى الثمينة والمركبات الفخمة والخيول المطهمة — المرأة التى أحبها قلبي وسكب على أقدامها عواطفه ومالت اليها نفسى فغمرتها بالمواهب والعطايا — المرأة التى كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجا أميناً قد خانتنى وغادرتنى وذهبت الى بيت رجل آخر لتعيش معه فى ظلال الفقر وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار وشرب الماء الممزوج بالذل والعيب — المرأة التى أحببتها — الطائر الجميل الذى أطعمته حبات قلبي وأسقيته نور أحداقي وجعلت ضلوعى له قفصاً ومهجتى عشاً قد فرّ من بين يدي وطار الى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان ويشرب من جوانبه السم والعلقم — الملاك الطاهر الذى أسكنته فردوس محبتي وانعطافى قد انقلب شيطاناً مخيفاً وهبط الى الظلمة ليتعذب بآثامه ويعذبنى بجريمته »

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كانه يريد أن يحمى نفسه من نفسه ثم تنهد قائلا : « هذا كل ما أقدر

أن أقوله فلا تسألنى أكثر من ذلك ولا تجعل لمصيبتي صوتاً صارخا بل دعها مصيبة خرساء لعلها تنمو بالسكينة فتميتنى وتريحنى »

فقمت من مكاني والدموع تراود أجفانى والشفقة تسحق قلبى . ثم ودعته ساكتاً لأنى لم أجد فى الكلام معنى يعزى قلبه الجريح ولا فى الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة .

٢

بعد أيام التقيت لاول مرة بالسيدة وردة الهاني في بيت حقير محاط بالزهور والاشجار . وكانت قدسمعت لفظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان ، ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة . ولما رأيت عينيها المنيرتين وسمعت نغمة صوتها الرخيمة قلت في ذاتي « أتقدر هذه المرأة أن تكون شريرة ؟ وهل بامكان هذا الوجه الشفاف أن يستر نفساً شنيعة وقلباً مجرما ؟ أهذه هي الزوجة الخائنة ؟ أهذه هي المرأة التي جنيت عليها مرات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبىء في جسم طائر بديع الشكل ؟ » ولكني رجعت وهمست في سري قائلا : « اذاً أي شيء جعل ذلك الرجل تعساً اذا لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ أولم نسمع ونرَ أن المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفية هائلة وأحزان عميقة أليمة ؟ أوليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء شعاعا

هو القمر الذي يهيج سكينة البحار بالمد والجزر »

جلستُ وجلستْ السيدة ورده وكأنها قد سمعتني مفتكراً فلم ترد ان يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ، فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء وبصوت يحاكي نغمة الناي رقةً قالت : « لم ألتق بك قبل الآن أيها الرجل ولكني سمعت صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس فعرفتك شفوقا على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً بعواطفها وميولها . من أجل ذلك أريد ان أبسط لك قلبي وأفتح أمامك صدري لترى مخبآته وتخبر الناس ان شئت بأن ورده الهاني لم تكن قط امرأةً خائنةً شريرة . . .

كنت في الثامنة عشرة من عمري عند ما قادني القدر الى رشيد بك نعمان وكان هو اذ ذاك قريبا من الأربعين فشغف بي ومال اليَّ ميلا شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين . فألبسني الحرير وزين رأسي وعنقي ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل

أصدقائه ومعارفه ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عند مايرى عيون أترابه ناظرة الىّ باعجاب واستحسان ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً اذ يسمع نساء أصحابه يتكلمن عنى بالاطراء والمودة . لكنه لم يكن يسمع قول السائل (أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبية تبناها) وقول الآخر لو تزوج رشيد بك فى زمن الشباب لكان بِكرُهُ أكبر سنا من وردة الهانى) .

جرى كل ذلك قبل أن تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق وقبل أن توقد الالهة شعلة المحبة فى قلبى وقبل أن تنبت بذور العواطف والاميال فى صدري . نعم جرى كل ذلك عند ما كنت أحسب منتهى السعادة فى ثوب جميل يزين قامتي ومركبة نخمة تجرنى ورياش ثمينة تحيط بى ولكن عند ما استيقظت — عند ما استيقظت وفتح النور أجفانى وشعرت بألسنة النار المقدسة تلسع أضلعى وتحرقها — وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسى فتوجعها — عند ما استيقظت ورأيت أجنحتى تتحرك

يمينا وشمالا وتريد النهوض بي الى سماء المحبــة ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيدت جسدي قبل أن أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة — عند ما استيقظت وشعرت بهذه الاشياء عرفت بان ســعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ، ولا بكرمه وحلمه ، بل بالحب الذي يضم روحها الى روحه ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله . عند ما بانت هذه الحقيقة الجارحة لبصــيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لص سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل . وعرفت أن كل يوم أصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء ، لأنني لم أقدر أن أهبه محبة قلبي لقاء كرمه ولا أن أُمنحه انعطاف نفسي ثمناً لإخلاصه وصلاحه . وقد حاولتُ وباطلا حاولتُ أن أتعــلم محبته فلم أتعلم . لأن المحبة هي قوةٌ تبتدع قلوبنا ، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها . ثم صليت وتضرعت وباطلا تضرعت وصليت

فى سكينة الليالى أمام السماء لتولّد فى أعماقى عاطفة روحية تقربنى من الرجل الذى اختارته رفيقا لى. فلم تفعل السماء لأن المحبة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر. وهكذا بقيت عامين كاملين فى منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حريتها. وبنات جنسى يحسدننى على سجنى. وكالثكلى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبى الذى ولد بالمعرفة واعتل بالشريعة وكان يموت فى كل يوم جوعاً وعطشاً. ففى يوم من تلك الأيام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعاً لطيفاً ينسكب من عينى فتى يسير وحدَهُ على سبل الحياة، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه فى هذا البيت الحقير. فأغمضت عينىَّ كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسى (نصيبك يانفسُ ظلمةُ القبرِ فلاتطمعى بالنور) ثم أصغيت فسمعت نغمة علوية تهز جوارحى بعذوبتها وتمتلك كليتى بطهرها فأغلقت أذنى وقلت : (نصيبك يا نفسُ صُراخ الهاوية فلا تطمعى بالأغانى) . . . أغمضت أجفاني كيلا أرى وأغلقتُ أذنيّ كيلا أسمع .

لكن عيني ظلتا تريان ذلك الشعاع وهما مُطبقَتانْ وأذني تسمعان تلك النغمة وهما مغلقتان نخفت لأول وهلة خوفَ فقير وجد جوهرةً بقرب قصر الأمير فلم يجسر أن يلتقطها لخوفه ولم يقدر أن يتركها لفاقته . وبكيت بكاء ظامئ رأى الينبوع العذب محاطا بكواسر الغاب فارتمى على الارض مترقباً جازعاً »

وسكتت السيدة وردة دقيقةً وقد أغمضت عينيها الكبيرتين كأن ذلك الماضي قد انتصب أمامها فلم تجسر أن تحدق بي وجهاً لوجه . ثم عادت وقالت : « هؤلاء البشر الذين يجيئون من الأبدية ويعودون اليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجلٍ تحبهُ بإرادة السماء، ورجلٍ تلتصقُ به بشريعة الأرض . هي مأساة أليمة مكتوبةٌ بدماء الأنثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكا لأنه لا يفهمها وإن فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوةً وأنزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكبريتاً وملأ أذنيها لعناً وتجديفاً . هي رواية

موجعة تمثلها الليالى السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد جسدها مقيداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف ماهى الزيجة . وترى روحها مرفرفة حول آخر تحبه بكل مافى الروح من المحبة وبكل ما فى المحبة من الطهر والجمال. هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور الضعف فى المرأة والقوة فى الرجل ولا ينتهى حتى تنقضى أيام عبودية الضعف للقوة . هى حربٌ هائلةٌ بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدسة قد طُرحتُ بالأمس فى ساحتها وكدتُ أموتُ جزعاً وأذوبُ دموعاً . لكننى وقفت ونزعت عنى جبانة بنات جنسى وحللت جناحىّ من رُبط الضعف والاستسلام وطرت فى فضاء الحب والحرية وأنا سعيدة الآن بقرب الرجل الذى خرج وخرجت شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور ، ولاتوجد قوة فى هذا العالم تستطيع أن تسلبنى سعادتى لأنها منبثقة من عناق روحين يضمهما التفاهم ويظللهما الحب »

ونظرتْ الىّ السيدة وردة نظرة معنوية كأنها تريد أن

تخترق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها فى عواطفى وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعى . لكننى بقيت صامتاً كيلا أوقفها عن الكلام . فقالت وقد قارن صوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحرية « يقول لك الناس أن وردة الهانى امرأة خائنة جحودة قد اتبعت شهوة قلبها وهجرت الرجل الذى رفعها اليه وجعلها سيدة فى منزله . ويقولون لك هى زانية عاهرة قد أتلفت بمقابضها القذرة إكليل الزواج المقدس الذى ضفرته الديانة واتخذت عوضاً عنه إكليلاً وسخاً محبوكا من أشواك الجحيم . وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت بلباس الإثم والعار . ويقولون لك اكثر من ذلك لان أشباح جدودهم مازالت حية فى أجسادهم

فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجعون صدى أصوات ولا يفهمون معناها . هم لا يعرفون شريعة الله فى مخلوقاته ، ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي ، ولا يعلمون متى يكون الانسان خاطئاً أو باراً ، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة الى ظواهر الأعمال ولا يرون أسرارها فيقضون بالجهل ويدينون

بالعباوة ويستوى أمامهم المجرم والبرىء والصالح والشرير . فويل لمن يقضى وويل لمن يدين . . أنا كنت زانية وخائنة فى منزل رشيد نعمان لأنه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل أن تصيرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف . وكنت دنسة ودنيئة أمام نفسى وأمام الله عندما كنت أشبع جوفي من خيراته ليشبع أمياله من جسدي . أما الآن فصرت طاهرة نقية لأن ناموس الحب قدحررنى . وصرت شريفة وأمينة لأنى أبطلت بيع جسدي بالخبز وأيامى بالملابس . نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبوننى زوجة فاضلة واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبوننى عاهرة دنسة لأنهم يحكمون على النفوس من مآتى الاجساد ويقيسون الروح بمقاييس المادة »

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة وأشارت بيمينها نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز كأنها رأت بين الأزقة وعلى السطوح وفى الأروقة أشباح المفاسد وخيالات الانحطاط « انظر

الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية حيث يسكن الاغنياء والاقوياء من البشر . فبين جدرانها المكسوة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء ، وتحت سقوفها المطلية بالذهب المذوب يقيم الكذب بقرب التصنع . انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التى تمثل لك المجد والسؤدد والسعادة فهى ليست سوى مغائر يختبىء فيها الذل والشقاء والتعاسة . هى قبورٌ مكلسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه وتنحجب فى زواياها انانية الرجل وحيوانيته بلمعان الفضة والذهب . هى قصور تتشامخ جدرانها تيهاً وافتخاراً نحو العلاء ولو كانت تشعر بانفاس المكاره والغش السائلة عليها لتشققت وتبعثرت وهبطت الى الحضيض . هى منازل ينظر اليها القروي الفقير بأعين دامعة ولو علم بأنه لايوجد فى قلوب سكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التى تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئاً وعاد الى حقله مشفقاً »

وأمسكت السيدة وردة بيدى وقادتنى إلى جانب

النافذة التى كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور وقالت « تعال فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرض أن أكون مثلهم . انظر الى ذلك القصر ذى الاعمدة الرخامية والجوانح النحاسية والنوافذ البلورية ففيه يسكن رجل غني ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقة المفعمة بالمفاسد . وقد تزوج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى أن لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد . ولم ينقض شهر العسل حتى ملها متضجراً وعاد الى مسامرة بنات الهوى وتركها فى هذا القصر مثلما يترك السكير جرة خمر فارغة . فبكت وتوجعت لأول وهلة ثم تصبرت وسلت سلو من عرف خطأه وعلمت بأن دموعها هى أثمن من أن تهرق على خسارة رجل مثل زوجها . وهى الآن مشغولة عن كل شىء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذى يغض الطرف عنها لانها تغض الطرف عنه . . . ثم انظر الى ذلك البيت المحاط بالحديقة

الغناء فهو مسكن رجل ينتمي الى أسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها الى التواني والكسل . وقد اقترن هذا الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنية جداً وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها وتكحيل عينيها وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير وتزيين قامتها بالأطالس والحرير لعلها تحظى بنظرة من أحد زائريها لكنها لا تحصل إلا على نظرات شبحها في المرآة . . . ثم انظر الى ذلك المنزل الكبير المزين بالنقوش والتماثيل فهو منزل امرأة جميلة الوجه خبيثة النفس قد مات زوجها الاول فاستأثرت بامواله واملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلا ضعيف الجسم والارادة واتخذته بعلا لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها . وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلواً ولذيذاً . وانظر الى

تلك الدار ذات الاروقة الوسيعة والقناطر البديعة فهي مسكن رجل مادي الاميال كثير المشاغل والمطامع وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن وكل ما في روحها حلو ولطيف وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقة المعاني فهي قد كونت لتعيش بالحب وتموت به . لكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة وهي الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة. وتضمحل على مهل كالرائحة الزكية أمام العاصفة . وتفنى حباً بشيء جميل تشعر به ولا تراه وتصبو حنيناً الى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتحرر من عبودية رجل يصرف الأيام بجمع الدنانير والليالي بعدها ويصر أسنانه محدقاً على الساعة التي تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته . . . ثم انظر الى ذلك البيت

المنفرد بين البساتين فهو مسكين شاعر خيالي سامى الافكار روحي المذهب له زوجة غليظة العقل خشنة الطباع تسخر بأشعاره لأنها لا تفهمها وتستهزئ بأعماله لانها غريبة وهو الآن مشغول عنها بمحبة امرأة أخرى متزوجة تتوقد ذكاء وتسيل رقة وتولد في قلبه النور بانعطافها وتوحي اليه الاقوال الخالدة بابتساماتها و نظراتها »

وسكتت السيدة وردة هنيهة وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأن نفسها قد تعبت من التجول في مخادع تلك المنازل الخفية ثم عادت تقول بهدوء : « هذه هى القصور التي لم أرض أن أكون من سكانها . هذه هي القبور التي لم أُرد أن أدفن حية طي لحودها . هؤلاء هم الناس الذين تخلصت من عوائدهم وخلعت عني نير جامعتهم هؤلاء هم المتزوجون الذين يقترنون بالاجساد ويتنافرون بالروح ولا شفيع بهم أمام الله سوى جهلهم ناموس الله . أنا لا أدينهم الآن بل أشفق عليهم ولا أكرههم بل أكره استسلامهم عفواً الى الرياء والكذب والخباثة . ولم أكشف أمامك خفايا

قلوبهم وأسرار معيشتهم لأنني لا أحب الاغتياب والنميمة بل فعلت ذلك لأريك حقيقةقوم كنت بالامس مثلهم فنجوت. وأبين لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة شريرة لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة وحولت عيني نحو النور حيث الاخلاص والحق والعدل. وقد نفوني الآن من جامعتهم وأنا راضية لأن البشر لا ينفون إلاّ من تمردت روحه الكبيرة على الظلم والجور. ومن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حراً بما في الحرية من الحق والواجب • أنا كنت بالامس مثل مائدة شهية وكان رشيد بك يقترب مني عند ما يشعر بحاجة الى الطعام أما نفسانا فتظلان بعيدتين كخادمين ذليلين • ولما رأيت المعرفة كرهت الاستخدام وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم أقدر لأن روحي أبت أن أصرف العمر كله راكعة أمام صنم مخيف أقامته الأجيال المظلمة ودعته الشريعة • فكسرت قيودي لكنني لم ألقها عني حتى سمعت الحب منادياً ورأيت

النفس متأهبة للمسير ، فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الأسير من سجنه تاركة خلفي الحلى والحلل والخدم والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح وأنا عالمة بأني لم أفعل غير الحق والواجب لان مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وارتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعدي ساكبة حُشاشتي من أجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة . إن السماء لا تريد أن أصرف العمر صارخة متوجعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر وعند ما يجيء الفجر أقول متى ينقضي هذا النهار . إن السماء لا تريد أن يكون الانسانُ تعساً لأنها وضعت في أعماقه الميل الى السعادة لأنه بسعادة الانسان يتمجد الله .. هذه هي حكايتي أيها الرجل وهذا احتجاجي أمام السماء والارض وأنا أردده وأترنم به والناس يغلقون آذانهم ولا يسمعون لأنهم يخشون ثورة أرواحهم ويخافون أن تتزعزع أسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم . هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمة سعادتي ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفت روحي أمام

العرش الاعلى بلا خوف ولا وجل بل بفرح وأمل وانحلت لفائف ضميري أمام الديان الاعظم وبانت نقية كالثلج لأنى لم أفعلْ غير مشيئة النفس التى فَصَلها الله عن ذاته ولم أتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة . هذه هي روايتي التى يحسبها سكان بيروت لعنة في فم الحياة وعلة في جسم الهيئة الاجتماعية . ولكنهم سوف يندمون عند ما تنبه الايام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة مثلما تستنبت الشمس الزهور من بطن الارض المملوء من بقايا الأموات فيقف اذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلا ههنا رقدت وردة الهاني التى حررت عواطفها من عبودية الشرائع البشرية الفاسدة لتحيا بناموس المحبة الشريفة وحولت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين الجماجم والاشواك »

***

ولم تنته السيدة وردة من كلامها حتى فُتح الباب ودخل علينا فتى نحيل القوام جميل الوجه تنسكب من عينيه أشعة

سحرية وتسيل على شفتيه ابتسامة لطيفة، فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلي وقدمته إلي بعد أن لفظت اسمي مذيلا بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً بنظرة معنوية فعرفت بأنه ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله، ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كل منا بمعرفة رأي الآخر فيه حتى اذا مرت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس الى الملأ الأعلى نظرت اليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أره قط وعرفت باللحظة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت سر احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الافراد المتمردين على شرائعها قبل ان تستفحص دواعي تمردهم. رأيت روحاً واحدة سماوية متمثلة أمامي بجسدين يجملها الشباب ويسربلها الاتحاد وقد وقف بينهما اله الحب باسطاً جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم. وجدتُ التفاهم الكلي منبعثاً من وجهين شفافين ينيرهما الاخلاص ويحيط بهما الطهر: وجدت لاول مرة

في حياتي طيف السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يُرذِلهُما الدينُ وتنبذهما الشريعة .

وبعد هنيهة وقفت وودعتها مظهراً بغير الكلام تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحب والوفاق وسرت بين تلك القصور والمنازل التى اظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكراً بحديثها وبكل ماينطوي تحته من المبادئ والنتائج . لكنني لم ابلغ أطراف ذلك الحي حتى تذكرت رشيد بك نعمان فتمثلت لبصيرتى لوعة قنوطه وشقائه فقلت فى ذاتى (هو تعس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء اذا وقف أمامها متظلماً شاكياً وردة الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتبعت حرية نفسها أم هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل ان يستميل روحها بالمحبة ؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم ؟ ومن هو المجرم ومن هو البريء ياترى ؟) ثم عدت قائلا لذاتى مستفتياً أخبار الايام مستقصياً حوادثها كثيراً ما أباح الغرور للنساء أن

يتركن رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الاغنياء لأن شغف المرأة ببهرجة الملابس ونعومة العيش يُعمي بصيرتَها ويقودُها إلى العار والانحطاط. فهل كانت وردة الهانى مغرورةً وطامعةً عندما خرجت من قصر رجل غني مفعم بالحلى والحُلل والرياش والخدم وذهبت الى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صف من الكتب القديمة ؟ وكثيرًا ما يُميت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلها مللاً وتضجراً وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر أكثرَ منها انحطاطاً وأقلّ شرفاً. فهل كانت وردة الهانى جاهلة راغبة بالملذات الجسدية عندما أُعلنت استقلالها على رؤوس الأشهاد وانضمت الى فتى روحي الأميال. وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسَّها سراً فى منزل زوجها من هُيام الفتيان الذين يستميتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها ؟ وردة الهانى كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها وهذه هى الحقيقة التى تحتقرها الجامعة الانسانية وتنفيها الشريعة .

همستُ تلك الكلمات فى مسامع الاثير ثم قلت

مستدركا ولكن أيسوغ للمرأة ان تشترى سعادتها بتعاسة بعلها ؟ فأجابتنى نفسى قائلة وهل يجوز للرجل أن يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيداً ؟

***

وظللت سائراً وصوت السيدة ورده يتموج فى مسامعى حتى بلغت اطراف المدينة والشمس قد مالت الى الغروب وابتدأت الحقول والبساتين تتشح بنقاب السكينة والراحة والطيور تنشد صلاة المساء فوقفت متأملا ثم تنهدت قائلا امام عرش الحرية تفرح هذه الاشجار بمداعبة النسيم وأمام هيبتها تبتهج بشماع الشمس والقمر . . على مسامع الحرية تتناجى هذه العصافير وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي. فى فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها وأمام عينيها تبتسم لمجىء الصباح . . كل مافى الارض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وأفراحها … أما البشر فمحرومون من هذه النعمة لأنهم وضعوا لأرواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة . وسنوا لأجسادهم ونفوسهم

قانوناً واحداً قاسياً. واقاموا لميولهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً. وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً. فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا متمرد شرير خليق بالنفي، وساقط دنس يستحق الموت...

ولكن هل يظل الانسان عبداً لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء الدهر أم تحرره الأيام ليحيا بالروح وللروح؟ أيبقى الانسان محدقاً بالتراب أم يحول عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظل جسده بين الأشواك والجماجم؟

صراخ القبور

١

تربع الامير على منصة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار . وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرماح . ووقف الناس أمامه بين متفرج أتى به حب الاستطلاع ومترقب ينتظر الحكم في جريمة قريبه وجميعهم قد أحنوا رقابهم وخشعوا بيصائرهم وأمسكوا أنفاسهم كأن في عيني الأمير قوة توعز الخوف وتوحي الرغبة الى نفوسهم وقلوبهم . حتى اذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدينونة رفع الأمير يده وصرخ قائلاً « احضروا المجرمين أمامي واحداً واحداً وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم » . ففتح باب السجن وبانت جدرانه المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر

عند ما يفتح فكيه متثائباً . وتصاعدت من جوانبه قلقلة القيود والسلاسل متآلفة مع أنين الحبساء ونحيبهم . فحول الحاضرون أعينهم وتطاولت أعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف الساعدين يتكلم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزة في النفس وقوة في القلب . وأوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلا الى الوراء . فأحدق به الأمير دقيقة ثم سأل قائلا « ما جريمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة »

فأجابه رجل من أعوانه قائلا

« هو قاتل شرير قد اعترض بالأمس قائداً من قواد الامير وجندله صريعاً اذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى وقد قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده »

فتحرك الامير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلا : « ارجعوه الى الظلمة وأثقلوا جسده بالقيود وعند ما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحد سيفه ثم اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة نتانتها الى أنوف أهله ومحبيه »

أرجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات الاسف والتنهيدات العميقة لانه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قوي البنية .

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبية جميلة الوجه ضعيفة الجسد قد وشح معانيها اصفرار اليأس والقنوط وغمرت عينيها العبرات وألوت عنقها الندامة والحسرة .

فنظر اليها الأمير قائلا « وما فعلت هذه الامرأة المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟ »

فأجابه أحد الجنود قائلا « هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلها ليلا فوجدها بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد أن فرّ أليفها هارباً »

فأحدق الاميرُ بها وهي مطرقة خجلا ثم قال بشدة وقساوة « ارجعوها الى الظلمة ومددوها على فراش من الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعيبها واسقوها الخل ممزوجاً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القبل المحرمة . وعند مجيء الفجر جروها عارية الى خارج المدينة وارجموها بالحجارة واتركوا جسدها هناك لكي تتنعم بلحمانه الذئاب وتنخر عظامه الديدان والحشرات »

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون اليها بين معجب بعدل الأمير ومتأسف على جمال وجهها الكئيب ورقة نظراتها المحزنة .

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلا ضعيفاً يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي ويلتفت جزعاً الى كل ناحية ومن نظراته الموجعة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتعاسة .

فالتفت الأمير نحوه وقال بلهجة الاشمئزاز « وما ذنب هذا القذر الواقف كالميت بين الاحياء »

فأجابه أحد الجنود قائلا « هو لص سارق قد دخل الدير ليلا فقبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا طي أثوابه آنية مذابحهم المقدسة »

فنظر اليه الأمير نظرة النسر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلا « أنزلوه الى أعماق الظلمة وكبلوه بالحديد وعند مجيء الفجر جروه الى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتان واتركوا جسده معلقاً بين الارض والسماء فتنثر العناصر أصابعه الاثيمة نثراً وتذري الرياح أعضاءه نتفاً »

أرجعوا اللص الى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين « كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة »

ونزل الامير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء والمتشرعون وسار الجند خلفه وأمامه وتبدد شمل المتفرجين وخلا ذلك المكان الا من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة كالخيالات على الجدران .

جرى كل ذلك وانا واقف هناك وقوف المرآة أمام الاشباح السائرة مفكراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ، متأملا بما يحسبه الناس عدلا ، متعمقاً بأسرار الحياة باحثاً عن معنى الكيان . حتى اذا ماتضعضعت أفكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان قائلا لذاتي الأعشاب تمتص عناصر التراب . والخروف يلتهم الأعشاب . والذئب يفترس الخروف . ووحيد القرن يقتل الذئب والأسد يصيد وحيد القرن . والموت يفني الأسد . فهل توجد قوة تتغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلا سرمدياً ! . . . أتوجد قوة تحول جميع هذه الأسباب الكريهة الى نتائج جميلة ، أتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضمها الى ذاتها مبتسمة مثلما يرجع البحر جميع السواقي إلى أعماقه مترنماً ؟ أتوجد قوة توقف القاتل والمقتول والزانية وخليلها والسارق والمسروق منه امام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير ؟

٢

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول حيث تبيح السكينة للنفس ما تسره النفس ، وبعيت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت فاذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طوراً وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها . فتقدمت قليلا مستطلعاً فرأيت أمامي جثة رجل معلقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدماء المجبولة بالتراب وقد فُصل رأسها عنها .

وقفت وهول المشهد يغشى بصيرتي بنقاب كثيف مظلم ونظرت فلم أرَ سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث الملطخة بالدماء . وأصغيت فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالامس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم في قبضة الموت

ثلاثة أساؤا بعرف البشر الى الناموس فمدت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة أمواتاً لأنها قوية .

رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم وعند ما فتك به الأمير قال الناس هذا أمير عادل .

ورجل حاول أن يسلب الدير فقال الناس هذا لص شرير . وعند ما سلبه الأمير حياته قالوا هذا أمير فاضل .

وامرأة خانت بعلها فقال الناس هي زانية عاهرة . ولكن عند ما سيّرها الأمير عارية ورجمها على رؤوس الأشهاد قالوا هذا أمير شريف .

سفك الدماء محرَّمٌ . ولكن من حلله للأمير ؟

سَلْبُ الأموال جريمة . ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة ؟

خيانة النساء قبيحة . ولكن من صيّر رجم الأجساد جميلاً ؟

أنقابل الشرّ بشرٍ أعظم ونقول هذه هي الشريعة . ونقاتل الفساد بفساد أعم ونهتف هذا هو الناموس . ونغالب الجريمة بجريمة أكبر . ونصرخ هذا هو العدل ؟

أما صرع الأمير عدوًّا في غابر حياته ؟ أما سلب مالاً أو عقاراً من أحد تابعيه الضعفاء ؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسها ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرمات فجاز له اعدام القاتل وشنق السارق ورجم الزانية ؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة ؟ أملائكة نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كل ما تصل اليه أيديهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ؟ أأنبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلوا ؟

ومن رجم هذه الزانية ؟ أنُسّاك طاهرون أتوا من

صوامعهم أم بشرٌ يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين بستائر الظلام ؟

الشريعة — وما هي الشريعه ؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء ؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر . وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين « احرموا الضعفاء نور الحياة ، وافنوا الساقطين بحد السيف ، ودوسوا الخطأة بأقدام من حديد »

وظلت هذه الأفكار تتزاحم على فكرتي وتتسابق عواطفي حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني فنظرت واذا بصبية قد ظهرت من بين الاشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحذرة متلفتة بخوف الى كل ناحية . حتى اذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه وطوقته بزنديها المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتلامس شعره الجعدي بأطراف أصابعها وتنتحب بصوت عميق جارح خارج من صميم الكبد ، ولما أنهكها البكاء وغلبتها الحسرات ، أسرعت تحفر التراب بيديها حتى اذا ما حفرت قبراً وسيعاً

وجرّت إليه الفتى المصروع ومددته على مهل موجع ووضعت رأسه المضرج بالدماء بين كتفيه وبعد أن غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذى قطع عنقه على قبره ، وإذ همّت بالانصراف تقدمت نحوها فأجفلت وارتعشت خوفاً ثم أطرقت والدمع السخين يتساقط كالمطر من مقلتيها وقالت متنهدة « اشكنى إلى الأمير إن شئت نخير لي أن أموت وألحق بمن خلصنى من قبضة العار من أن أترك جسده طعاماً لقشاعم الطير والوحوش الكواسر » فأجبتها قائلا . لاتخافى مني أيتها المسكينة . فأنا قد ندبت حظ فتاك قبلك بل خبريني كيف أنقذك من قبضة العار »

فقالت والغصص تقطع صوتها « جاء قائد الأمير الى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ولما رآنى نظر الي نظرة استحسان مخيفة ثم فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها فقبض عليّ ليقتادني قهراً الى صرح الأمير بدلا من الذهب فاسترحمته بدموعي فلم يحفل واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم فصرخت مستغيثة

برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلصني من بين يديه القاسيتين فاستشاط غضباً وهمّ أن يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي . ولكبر نفسه لم يفر هارباً كالقتلة المجرمين بل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه إلى السجن مكبلا بالقيود »

قالت هذا ونظرت إليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير الشجون وولّت مسرعة ورنات صوتها الموجعة تولد بين تموجات الأثير اهتزازاً وارتعاشاً .

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم ساتراً وجهه بأثوابه حتى اذا مابلغ جثة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها اعضاءها العارية وأخذ يحفر الأرض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوء وواراها التراب ساكباً مع كل حفنة قطرة من أجفانه. ولما انتهى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف . واذا همّ بالذهاب أوقفته قائلا «مانسبة هذه المرأة

الساقطة إليك حتى سميت مخالفاً ارادة الامير ومخاطراً بحياتك لكي تحمي جسدها المرضوض من طيور السماء الجوارح »

فنظر إليّ وأجفانه المقرحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدة حزنه ولوعته وبصوت مخنوق ترافقه التنهيدات الاليمة قال « أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رجمتْ من أجله — أحببتها وأحبتني مذ كنا صغيرين نلعب بين المنازل . نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيداً قوياً نخدمه بعواطف قلبينا فيستميلنا إليه ونهابه بسرائر روحينا فيضمنا الى صدره. ففي يوم وقد كنت غائباً عن المدينة زوّجها والدها كرهاً من رجل تكرهه ولما رجعت وسمعت بالخبر تحولت أيامي الى ليل طويل حالك وصارت حياتي نزاعاً مراً متواصلا . وبقيت أصارع عواطفي وأغالب ميول نفسي حتى تغلبت علي وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً أعمى . فذهبت الى حبيبتي سراً وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها فوجدتها منفردة تندب حظها وترثي أيامها فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا — ولم تمر ساعة حتى دخل زوجها فجأة ولما

رآني أوعزت اليه نياته القـذرة فقبض على عنقها الأملس بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته (تعالوا وانظروا الزانية وعشيقها) فهرول الجيران ثم جاء الجند مستطلعين الخبر فأسلمها إلى أيديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزقة الأثواب . أما أنا فلم يمسّني أحد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة اذا سقطت ، أما الرجل فتسامحه »

وعاد الشاب نحو المدينة ساتراً وجهه بأثوابه ولبثت أنا ناظراً متأملا متنهداً وجثة اللص المشنوق ترتجف قليلا كلما هز الهواء أغصان الشجرة كأنها تسترحم بحرا كها أرواح الفضاء لتهبط وتمددها على صدر الأرض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب

وبعد ساعة ظهرت إمرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقا بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على الأرض سقوط الثوب البليل . فنزلت المرأة وحفرت قبراً

بجانب القبرين ووضعته فيه : وبعد ان غمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منهما صليباً وغرسته فوق رأسه . ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفتها قائلا « ما غرّكِ أيتها الإمرأة فجئتِ تدفنين لصاً سارقا »

فنظرت اليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت « هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي . خمسة أطفال يتضورون جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يفطم ... لم يكن زوجي لصاً بل كان زارعا يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان الا على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة الى الصباح ... مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساتينه . ولما ضعف وانهبت أعوام العمل قواه وراودت الأمراض جسده أبعدوه قائلين (لم يعد الدير محتاجاً اليك فاذهب الآن وعندما يشب أبناؤك ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل) فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين

.فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين.
فذهب يطلب عملا فى المدينـة وعاد مطروداً لأن سكان
تلك القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء. ثم جلس
على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس إليه بل كانوا
يمرون به قائلين (الصـدقة لا تجوز على مغـلوب التوانى
والـكسل) ففى ليـلة وقد برح العوز بنا حتى صار أطفالنا
يتلوون جوعا على التراب . والرضيع بينهم يمص ثديّ ولا
يجد لبناً . تغـيرت ملامح زوجى وذهب مستتراً بالظلام
ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول
وخمر الـكروم وحمل زنبيلا من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع
إلينا. لـكنه لم يسر بضع خطوات حتى استيقظ القسس من
رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضربا وشتما وعند ماجاء الصباح
أسلموه الى الجند قائلين (هو لص شرير جاء لـكى يسرق آنية
الدير الذهبية) فاقتاده الجند الى السجن ثم الى المشنقة ليملأوا
أجواف العقبان من جسده لأنه حاول أن يملأ أجواف صغاره
الجياع من فضلات الغلة التى جناها بأتعابه اذ كان خادما للدير »

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع أشباح محزنة تتصاعد وتتسارع الى كل ناحية كأنها أعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء

***

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤبن ارتج عليه وانعقد لسانه لوعة فانسكب دمعه متكلماً عن عواطفه . وحاولت التفكر والتأمل فعصتني نفسي لان النفس كالزهرة تضم أوراقها أمام الظلمة ولا تعطي أنفاسها لخيالات الليل .

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلم انبثاق الضباب من خلايا الأودية ويتموج حول مسامعي ليوحي اليّ الكلام .

وقفت ساكتاً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم الى كواسر الغاب .

وقفت متنهداً ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحركت وتركت أماكنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده وهدمت

بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه

وقفت ناظراً ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة — قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وأنقذها من بين أظافر ذئب كاسر فقطعوا عنقه جزاء شجاعته . وقد أغمدت تلك الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف والغباوة — وقبر صبية لامس الحب نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها فرجمت لأن قلبها أبى الا أن يكون أميناً حتى الموت . وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفنائها البطيء عن مصير النفوس التي يقدسها الحب بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم الجهل — وقبر فقير بائس أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعيضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده . ثم رجاه بالتسول فلم ينله ، وعند ما دفعه اليأس الى استرجاع قليل من الغلة التي جمعها

بأتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به . وقد وضعت أرملته صليباً على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصرى الى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السنينة أجساد المساكين والضعفاء

وتوارت الشمس اذ ذاك وراء الشفق كأنها ملّت متاعب البشر وكرهت ظلمهم . وابتدأ المساء يحيك من خيوط الظل والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة. فرفعت عينيّ إلى العلاء وبسطت يديّ نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي « هذا هو سيفك أيتها الشجاعة فقد أغمد بالتراب . وهذه هي زهورك أيها الحب فقد لفحتها النيران . وهذا هو صليبك يا يسوع الناصرى فقد غمرته ظلمة الليل »

مضجع العروس (١)

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنئون الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح . ويسير حولهما الفتيان المترنمون بالأهازيج والصبايا المنشدات أغاني السرور.

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والأواني المتلامعة والرياحين العطرة فاعتلى العروسان مقعداً مرتفعاً وجلس المدعوون على الطنافس الحريرية والكراسي المخملية حتى غُصت تلك القاعة الوسيعة بأشكال الناس . وسعى الخدام بآنية الشراب فتصاعدت رنات الكؤوس متآلفة مع هتاف الغبطة ، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا يسكرون النفوس بأنفاسهم السحرية ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود وتنهيدات الناس وحفيف الدفوف .

---

(١) هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الأخير من الجيل التاسع عشر وقد أخبرتني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي. تنتسب الى أحد أشخاص الحكاية .

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق مقاطيع اللحن مثلما تتابع الأغصان اللينة مجارى هبوب النسيم . وتنثنى طيات أثوابهن الناعمة كأنها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر . فشخصت إليهن الأبصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح الفتيان وتفطرت لجمالهن مرائر الشيوخ . ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب ويغمرون أميالهم بالخمور . فنمت الحركة وعلت الأصوات وسادت الحرية وتوارت الرزانة وتضعضعت الأدمغة وتلهبت النفوس واضطربت القلوب وأصبح ذلك المنزل بكل ما فيه كقيثارة مقطعة الأوتار فى يد جنية غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها أنغاماً جامعة بين التناسق والالتباس : فهنا فتى يبوحُ بسرائر حبه لفتاة أولاها الجمال تيهاً ودلالا . وهنالك شاب يستعد لمحادثة حسناء مستحضراً إلى حافظته أعذب الألفاظ وأرق المعاني . وهنالك كهل يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة إلى المنشدين إعادة أغنية ذكرته بأيام صبابته . فى هذه القرنة امرأة تغامز

بأطراف أجفانها رجلا ينظر بمودة الى سواها . وفى تلك الزاوية سيدة قد بيض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهن عروسة لوحيدها . وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها وجميعهم غارقون فى بحر من الخمر والغزل مستسلمون إلى تيار الغبطة والسرور متناسون حوادث الأمس منصرفون عن مآتى الغد منعكفون على استثمار دقائق الحاضر .

كان يجرى كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين إلى هذا المشهد مثلما ينظر الأسير اليائس الى جدران سجنه السوداء . وتتلفت بين الآونة والأخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغبوطين انفراد الطائر الجريح عن سربه ، مبكلا زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار محدقا بشيء غير منظور فى فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنوية قد انفصلت عن ذاته الحسية وسبحت فى الخلاء متبعة أشباح الدجى .

انتصف الليلُ وتعاظمت غبطة الجماعـة حتى صارت ثورة ، واختمرت أدمغتهـم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقة بين الناس .

في تلك الدقيقة أومأت العروس إلى صبية أن تقترب منها فاقتربت وجلست بجانبها وبعد أن تلفتت العروس إلى كل ناحية تلفت جازع يريد أن يفشي سراً خفياً هائلا لزّت الى الصبية وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش :

« أستحلفك يارفيقتي بالعواطف التي ضمت نفسينا مذ كنا صغيرتين . أستحلفك بكل ماهو عزيز لديك في هذه الحياة . استحلفك بخبآت صدرك . استحلفك بالحب الذي يلامس أرواحنا ويجعلها شعاعا . استحلفكِ بأفراح قلبكِ وأوجاع قلبي أن تذهبي الآن الى سليم وتطلبي إليه أن ينزل خفية الى الحديقة وينتظرني هناك بين أشجار الصفصاف . تضرعى عنى ياسوسان حتى يجيب طلبي . ذكريه بالأيام الغابرة ، توسلى إليه باسم الحب ، قولى له هي تعسة عمياء ، قولى هي

مائتة تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام ، قولى له هي هالكة شقية تريد أن ترى نور عينيك قبل أن تختطفها نار الجحيم ، قولى له هي خاطئة تريد أن تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك ، أسرعى اليه وابتهلى عنى أمامه ولا تخافى مراقبة هؤلاء الخنازير لأن الخمور قد سدت آذانهم وأعمت بصائرهم »

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده وأخذت تستعطفه هامسة فى أذنه كلمات رفيقتها ودلائل الود والاخلاص بادية على ملامحها وهو منحنى الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة . حتى إذا ما انتهت من كلامها نظرت إليها نظرة ظامئ يرى الكأس في قبة الفلك وبصوت منخفض تخاله آتياً من أعماق الأرض أجابها قائلا « سوف أنتظرها في الحديقة بين أشجار الصفصاف »

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج الى الحديقة ولم تمض بضع دقائق حتى قامت العروس واتبعته

مختلسة خطواتها بين رجال فتنتهم ابنة الكروم ونساء أشغلت قلوبهن صبابة الفتيان . ولما بلغت الحديقة الموشاة بأثواب الليل أسرعت ملتفتة الى الوراء . ومثل غزال جازع هارب إلى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدمت نحو أشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى . ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه وطوقت عنقه بزنديها وأحدقت بعينيه ثم قالت والألفاظ تتسارع من شفتيها بسرعة الدموع من أجفانها «إسمعني ياحبيبي . إسمعني جيداً . ها قد ندمت على جهالتي وتسرعي . قد ندمت ياسليم حتى سحقت الندامة كبدي . أنا أحبك ولا أحب سواك وسوف أحبك الى منتهى العمر، قد أخبروني بأنك سلوتني وهجرتني وتعلقت بهوى غيري أخبروني بكل ذلك ياسليم وسمموا قلبي بألسنتهم ومزقوا صدري بأظافرهم وملأوا نفسي بكذبهم . قد أخبرتني نجيبة بأنك سلوتني وكرهتني وانشغفت بحبها . قد ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفي لكي أرضى بنسيبها عريساً فرضيته ياسليم ولا عريس لي سواك . والآن : والآن قد

رُفع الغشاء عن عيني فجئت إليك . قد خرجت من هـذا المنزل ولن أعود اليه . قد جئت لـكي أضمك بذراعي ولا توجد قوة فى هذا العالم ترجعنى الى ذراعي الرجـل الذى زففت إليه كرهاً ويأساً . قد تركت العريس الذى اختاره لى الـكذب بعلا ، وتركت الوالد الذى أقامه القدر ولياً ، وتركت الزهور التى ضفرها الـكاهن إكليلا ، وتركت الشرائع التى حبكتها التقاليد قيوداً . قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة وأتيت لاتبعك الى أرض بعيدة ، إلى أقاصى العالم ، إلى مكامن الجن ، إلى قبضة الموت ، تعال نسرع ياسليم من هذا المكان متسترين بوشاح الليل . هلم نسير الى الساحـل ونركب سفينة تحملنا الى بلاد بعيـدة مجهولة . تعال نمشى الآن فلا يجيء الفجر إلا ونحن فى مأمن من أيدى العدو . انظر . انظر هذه الحلي الذهبية . وهذه القلائد والخواتم الثمينة ، وهـذه الجواهر النفيسة ، فهى تـكفل مستقبلنا وتـكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء . . لماذا لا تتكلم ياسليم ؟ لماذا لا تنظر اليّ ؟ لماذا لا تقبلنى ؟ أسامع

أنت صراخ قلبي وعويل نفسي — ألا تصدق بأني هجرت عريسي وأبي وأمي وجئت بأثواب العرس لكي أهرب معك ؟ تكلم أو هلمّ نسرع فهذه الدقائق أثمن من حبات الألماس وأغلى من تيجان الملوك »

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة أعذب من همس الحياة وأمر من عويل الموت وألطف من حفيف الأجنحة وأعمق من أنين الأمواج — نغمة تتموج نبضاتها بين اليأس والأمل ، واللذة والألم ،والفرح والشقاء ، وكل ما في صدر الامرأة من الميول والعواطف .

أما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب والشرف : ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلا ، والظلام نوراً ، وذلك الشرف الذي يقف أمام النفس ، ويثنيها عن رغائبها ومنازعها . ذلك الحب الذي ينزله الله على القلب ، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ .

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالأجيال المظلمة التي تمايل فيها الأمم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب

رأسه وقد تغلب شرف نفسه على ميلها وحول عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء : « ارجعى أيتها الامرأة إلى ذراعى عريسك فقد قُضي الأمر ومحت اليقظة ماصوّرته الأحلام — أسرعى الى أُحضان المسرات قبل أن تراك أعين الرقباء فيقول الناسُ قد خانت عريسها فى ليلة العرس مثلما خانت حبيبها أيام البعاد »

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتمايلت كزهرة ذابلة أمام الريح ثم قالت متوجعة « لا أعود الى هذا المنزل وبى رمق من الحياة ، قد خرجت منه الى الابد ، قد تركته وكل من فيه مثلما يترك الأسير أرض المنفى ، فلا تبعدنى عنك ولا تقل بأنى خائنة ، لأن يد الحب التى مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التى أسلمت جسدى الى مشيئة العريس ، هاقد طوقت ذراعيّ حول عنقك فلا تحلهما القوات وقربت نفسى إلى نفسك فلا يفرقهما الموت »

فقال الشاب محاولا الخلاص من ذراعيها متكلفاً إظهار المقت والاشمئزاز « ابتعدى عني أيتها المرأة فقد سلوتك ، نعم

سلوتكِ وكرهتكِ وتعلقت بهوى غيركِ ، فلم يقل الناس غير الصحيح . هل سمعت ماذا أقول ؟ قد سلوتك حتى نسيت وجودك وكرهتك حتى أبت نفسي مرآك فابتعدي عني ودعيني أذهب فى سبيلي، وعودي إلى عريسك وكوني له زوجة أمينة »

فقالت الصبية متفجعة « لا لا أصدق كلامك فأنت تحبني وقد قرأت معنى الحب فى عينيك وشعرت بملامسه عندما لمست جسدك . أنت تحبني وتحبني وتحبني مثلما أحبك فانا لا أترك هذا المكان إلا بجانبك ولن أدخل هذا المنزل وفى نفسي بقية من الارادة . قد جئت لكي أتبعك إلى آخر الارض فسر أمامي وارفع يدك واهرق دمي »

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل « اتركيني أيتها الامرأة وإلا صرخت بأعلى صوتي وجمعت فى هذه الحديقة أولئك الناس المدعوين إلى أفراح عرسك وأريتهم عارك وجعلتك مضغة مرة فى أحناكهم ومثلا قبيحاً على ألسنتهم وأوقفت نجيبة التي أحبها قلبي تسخر بك وتبتسم فارحة

بانتصارها مستهزئة بانغلابك »

قال هذا وأمسك بذراعها ليبعدها عنه فتغيرت ملامحها وأبرقت عيناها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجع إلى الغضب والقساوة وصارت كلبوة فقدت أشبالها أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثم صرخت « من هي التي تتمتع بحبك بعدي وأي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي ! »

لفظت هذه الكلمات وانتشلت من بين أثوابها خنجراً سنيناً وأغمدته بصدره بسرعة البرق ، فهوى وسقط على الارض كغصن قصفته العاصفة فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماً ، ففتح عينيه المغمورتين بظل الموت وارتعشت شفتاه وخرجت هذه الكلمات مع أنفاسه الضعيفة « اقتربي الآن ياحبيبتي اقتربي ياليلى ولا تتركيني . الحياة أضعف من الموت والموت أضعف من الحب . اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك . اسمعي رنين كؤوسهم ياحبيبتي . لقد أنقذتني ياليلى من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس فدعيني أقبل اليد التي كسرت قيودي . قبلي شفتيَّ . قبلي

شفتيّ اللتين تكلفتا الكذب واخفتا أسرار قلبي . أغمضي أجفاني الذابلة بأصابعك المغموسة بدمي . وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر يأساً وحسداً . قد أحببتك ياليلى ولم أحب سواك ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسك . قبليني ياحبيبة نفسي قبل أن يرى الناس جثتي . . قبليني قبليني يا ليلى »

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه !

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت بصوت هائل « تعالوا ، تعالوا أيها الناس ، فهنا العرس وهذا العريس ، هلموا لنريكم مضجعنا الناعم . استيقظوا أيها النيام وانتبهوا أيها السكارى واسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة »

تموج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملا كلماتها إلى آذان المحتفلين المغبوطين ، فارتعشت أرواحهم ،

واصغوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم. ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه وساروا ملتفتين يميناً وشمالا حتى إذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين إلى الوراء ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل ولمعان الخنجر فى يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجمد الحياة فى أجسادهم

فالتفتت العروس اليهم وقد اتشحت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة « اقتربوا أيها الجبناء ولا تخافوا خيال الموت فهو عظيم لايدنو من صغارتكم اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدسة لاتلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة . انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلة العرس — هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي — هو عريسى وأنا عروسته وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا فى هذا العالم الذى جعلتموه ضيقاً بتقاليدكم ومظلماً بجهالتكم وفاسداً بلهاثكم ففضلنا الذهاب إلى ماوراء

الغيوم . اقتربوا أيها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلبينا — أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسودة التي وشت إليّ بحبيبي وقالت بأنه شغف بها وسلاني وتعلق بحبها لينساني . قد توهمت تلك الشريرة بأنها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها . أين نجيبة المحتالة — أين تلك الأفعى الجهنمية — دعوها تقترب الآن وترى بأنها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي ... انتم لا تفهمون كلامي ، لأن اللجة لا تعي أغاني الكواكب . لكنكم سوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها . سوف تذكروني وتلعنوني بشفاهكم الأثيمة. أما أحفادكم فسوف يباركونني لأن الغد سيكون للحق والروح .. وأنت أيها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيرني له زوجة — أنت رمز هذه الأمة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة وتترقب خروج الماء من الصخرة . وظهور الورد من

القطرب ـ أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الأعمى الى قائده الأعمى ـ أنت ممثل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم توصلا إلى العقود والأساور . أنا اغتفر لك صغارتك لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلات هذا العالم »

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ونظير ظامئ يقرب حافة الكأس إلى شفتيه أغمدته بعزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد المنجل . فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأغمى على بعضهن وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية واقتربوا من المصروعين بوجل وهيبة .

فنظرت إليهم العروس المنازعه وقالت ونجيع الدماء ينهل بغزارة من صدرها البلوري « لا تقتربوا أيها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدينا ، وان حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة . دعوا هـذه الارض الجائعة تلوك جسدينا لقمة واحدة ·

دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع »

ولزت العروس إلى حبيبها وألقت شفتيها على شفتيه الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع أنفاسها الأخيرة « أنظر ياحبيبي - انظر ياعريس نفسي كيف وقف الحساد حول مضجعنا - انظر عيونهم المحدقة بنا ، واسمع صرير أسنانهم وتكسير ضلوعهم . قد انتظرتني طويلا ياسليم فها أنذا . قد كسرت القيود وفككت السلاسل فلنسرع نحو الشمس فقد طال وقوفنا فى الظل . هاقد امحت الرسوم واحتجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك ياحبيبي - ها شفتاي فاقتبل أنفاسى الأخيرة . هلم نذهب ياسليم فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور »

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه وأحنت رأسها على عنقه وظلت عيناها محدقتين بعينيه .

ولبث الناس صامتين هنيهة وقد اصفرت وجوههم

وتراخت ركابهم كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوة والحراك .

فتقدم إذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه أكاليل ذلك العرس وأشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلا « ملعونة هي الأيدي التي تمد إلى هذين الجسدين الملطخين بدماء الجريمة والعار . وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالكين قد حملت الأبالسة روحيها إلى الجحيم . لتبق جثة ابن سادوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول بدمائهما حتى تتقاسم لحمانهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح . اذهبوا إلى مساكنكم أيها الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتصاعدة من داخل قلبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة . تفرقوا أيها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين ، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم ألسنة النار الجهنمية ومن يبق منكم ههنا يكن محروما ومرذولا فلا يدخل الهيكل الذى يركع فيه المؤمنون ولا يشترك بالصلاة التى يقدمها المسيحيون ! »

فتقدمت سوسان ، تلك الصبية التى بعثتها العروس رسولا الى حبيبها ، ووقفت امام الكاهن ونظرت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة « انا أبقى هنا أيها الكافر الأعمى وانا أحرسهما حتى يجيء الفجر وأنا أحفر لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية . فإن منعتم عنى محفرا مزقت صدر الارض باصابعى ، وان ربطتم ساعدى حفرته باسناني ، أسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية ، واللصوص الخاطفة تهاب رب البيت وتخشى قدوم الصباح . أسرعوا الى مضاجعكم المظلمة لأن أغانى الملائكة المتموجة فوق شهيدي الحب لاتدخل آذانكم المسدودة بالتراب »

وتفرق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك الصبية واقفة بقرب الجثتين الهامدتين كأنها أم رقوب تحرس طفليها فى سكينة الليل ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب .

١

خليل الكافر

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان كالأمير بين الرعية . وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يشابه الجبار الواقف بين الأقزام . وكانت معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوة عن الضعف

إن تكلم الشيخ عباس بين أولئك الفلاحين احنوا رؤسهم اعجابا كأن القوى العقلية قد انتدبته ممثلا لها واتخذت لسانه ترجمانا عنها. وإن غضب ارتجفوا جزعا وتبددوا من أمام وجهه مثلما تترا كض أوراق الخريف أمام الارياح. وإن صفع خد رجل منهم ظل ذلك الرجل جامداً صامتاً كأن الضربة قد أتت من السماء فمن الكفر أن يتجاسر أو يرفع عينيه ليرى من أنزلها . وإن تبسم لرجل آخر قال الجميع

ما أسعده فتى رضي عنه الشيخ عباس

ولم يكن استسلام أولئك المساكين الى الشيخ عباس وخوفهم قساوته صادرين عن ضعفهم وقوته فقط بل كانا ناتجين عن فقرهم واحتياجهم إليه . لأن الحقول التي كانوا يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجده مثلما ورثوا الفقر والتعاسة من آبائهم وجدودهم . فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم إلا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع . قد كان أكثرهم يحتاج الخبز قبل انقضاء أيام الشتاء الطويلة فيذهب إليه الواحد بعد الآخر و يتضرع أمامه باكياً مستعطفاً لكي يقرضه ديناراً أو مكيالا من الحنطة فكان الشيخ عباس يجيب سؤالهم مسروراً لعلمه بأنه سيستوفي الدينار دينارين ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء أيام البيادر والموسم . وهكذا كان يبقى أولئك التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكبلين بحاجتهم اليه خائفين غضبه طالبين رضاه .

٢

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه وخلت الحقولُ والاودية إلاّ من الغربان الناعية والأشجار العارية فلزم سكان تلك القرية أكواخهم بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عباس من الغلة وملأوا آنيته من عصير الكروم وأصبحوا ولا عمل لهم يفنون الحياة بجانب المواقد متذكرين ما أتى الأجيال الغابرة مرددين على مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي .

انقضى كانون الاول (دسمبر) وقضى العام العجوز متنهداً أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي وجاءت الليلة التي يتوج فيها الدهر رأس عام الطفل ويجلسه على عرش الوجود .

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والأودية وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة العواصف تصفر وتتسارع ملعلمة من أعالي الجبال نحو المنخفضات حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد فترتعش لهولها الأشجار وتتململ أمامها الأرض فمزجت الأرياح بين ما تساقط من الثلج في ذلك النهار

والساقط منه في تلك الليلة حتى أصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت سطوراً مبهمة ثم يمحوها ، وفصل الضباب بين القرى المنثورة على كتفي الوادي وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نوافذ البيوت والأكواخ الحقيرة. وقبضت الرعبة على نفوس الفلاحين وانزوت البهائم بقرب المعالف واختبأت الكلاب في القراني ولم يبق سوى الريح تخطب وتضج على مسامع الكهوف والمغاير فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة وطوراً ينقض من أعالي قمم الجبال. فكأن الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد .

ففي هذه الليلة الهائلة وتحت هذا الجو الثائر كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة بتدرج من دير قزحيا[1] إلى قرية الشيخ عباس وقد أيبس البرد

---

(١) وهو أغنى وأشهر دير في لبنان تقدر حاصلاته بالوف الدنانير يسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلديين . وقزحيا لفظة سريانية معناها « فردوس الحياة »

مفاصله وانتزع الجوع والخوف قواه وأخفت الثلوج ثوبه الأسود كأنها تريد أن تكفنه قبل أن تميته ، فكان يخطو الى الأمام والأرياح تصده وترجعه إلى الوراء كأنها أبت أن تراه في منازل الأحياء ، وتتشبث الطريق الوعرة بأقدامه فيسقط ثم ينهك ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً ثم يخرسه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً فكأنه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق . أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيار المغضوب إلى الأعماق

وظل الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه وانحطت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتمى على الثلوج .

وصرخ صوتاً هائلا هو بقية الحياة في جسده : صوت خائف قد رأى خيال الموت وجها لوجه . صوت منازع قانط أتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمى به الى الهاوية، صوت محبة الكيان فى فضاء العدم

٣

في الجهة الشمالية من تلك القرية كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها . هذه المرأة هي أرملة سمعان الراعي الذي وجد قتيلا في البرية منذ خمسة أعوام ولم يعرف قاتله بعد .

كانت راحيل مثل جميع الأرامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء . فكانت تخرج أيام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسية في البساتين وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيط الأثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة . وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء . أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت .

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته واكتنف

الرماد جمره ؛ وفوق رأسيهما سراج ضعيف يبعث أشعته الصفراء الضئيلة إلى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح التعزية إلى كبد الفقير الحزين .

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الأرياح خارجاً ومن وقت إلى آخر كانت الصبية تقف وتفتح الكوة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود إلى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر

في تلك الدقيقة تحركت الصبية فجأة كأنها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو أمها وقالت بسرعة « هل سمعت ياأماه . هل سمعت صوت صارخ مستغيث »

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثم أجابت (لا لم أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي)

فقالت الصبية (أنا قد سمعت صوتاً أعمق من هزيم الريح وأمرّ من عويل العاصفة)

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة وأصغت دقيقة ثم قالت « قد سمعت الصراخ ثانية ياأماه »

فأجابت الام وقد أسرعت مرتاعة نحو النافذة « وأنا قد سمعت أيضاً ... تعالي نفتح الباب وننظر .. أوصدي النافذة كيلا تطفئ الريح السراج »

قالت هذا والتفت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجدائل شعرها .

مشت راحيل بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت « من الصارخ ـ أين المستغيث » فلم يجبها أحد ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة وإذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدمت إلى الأمام بشجاعة ملتفتة إلى كل ناحية حاجبة وجهها من تموجات الريح العنيفة . ولم تسر رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها فاتبعتها بسرعة جازع مترقب وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض . فتقدمت وذرت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها ووضعت يدها على صدره وإذ شعرت بنبضات

قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة « هامي يامريم هامي إلى معونتي فقد وجدته »

فخرجت مريم من البيت متبعة أثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد والخوف حتى إذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على الثلج تأوهت وصرخت بلهفة وتوجع، فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت أبطيه « هو حي فلا تخافي بل أمسكي بأطراف أثوابه وتعالي نحمله إلى البيت»

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج تتمسك بأقدامهما حتى إذا ما بلغتا به الكوخ ألقتاه بجانب الموقد وأخذت الأم تفرك أعضاءه المتجلدة والإبنة تجففه بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابعه الباردة . فلم تمر بضع دقائق حتى عادت إليه الحياة فتحرك قليلا وارتعشت أجفانه وتنهد تنهيدة عميقة بثت الأمل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقتين . فقالت مريم بعد أن حلت سيور حذائه المهشم وخلعت عباءته البليلة « انظري يا أماه انظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان » فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد

غمراً من القضبان اليابسة وقالت مستغربة « ان الرهبان لايخرجون من الدير فى مثل هذه الليلة المخيفة فأى شىء ياترى حمل هذا المسكين يخاطر بحياته ؟ »

فقالت الصبية مستدركة « ولكن هو أمرد يا أماه وللرهبان لحى كثيفة » فنظرت اليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالدية من عينيها وقالت متنهدة « جففي قدميه جيداً يا ابنتى راهباً كان أم مجرما »

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرة صغيرة مملوءة خمراً وسكبت منها فى اناء من الفخار ثم قالت لابنتها « اسندى رأسه يامريم لنجرعه قليلا من الخمر فينتعش وتعود الحرارة إلى جسده »

فربت راحيل حافة الطاس الى شفتي الشاب وجرعته قليلا ففتح عينيه الكبيرتين ونظر الى منقذيه لأول مرة نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل — نظرة من شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت — نظرة الأمل بعد اليأس . ثم ألوى عنقه

وخرجت هـذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين « ليبارككما الله »

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه « لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي بل ابق صامتاً حتى تعود إليك القوة »

وقالت مريم (اتكئ يا أخي إلى هذا المسند واقترب قليلا من الموقد »

فاتكأ الشاب متنهداً وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمراً وسقته ثانية ثم التفتت نحو ابنتها وقالت (ضعي جبته بقرب النار لتجف) ففعلت مريم ثم جلست تنظر إليه بحنو وشفقة كأنها تريد أن تبث بنظراتها الحرارة والقوة في جسده النحيل .

وأحضرت راحيل إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقماً صغيرة مثلما تفعل الأم وطفلها . حتى اذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصفر

وتلمعت عيناه الحزينتان ثم قال هازاً رأسه بهدوء « الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة ولكن سوف تتغلب الرحمة على القساوة لأنها الهية وسوف تمر مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار »
وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يسمع « يد بشرية دفعتني إلى الهوان ويد بشرية خلصتني فما أشد قساوة الانسان وما أكثر رأفته »

فقالت راحيل بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعذوبة الطمأنينة « كيف تجرأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب وتنزوي بالكهوف وتهابها العقبان فتختبئ بين الصخور »

فأغمض الشاب عينيه كأنه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع الى أعماق قلبه ثم قال « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أن يسند رأسه »

فقالت راحيل « هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب اليه أحد الكتبة ان يتبعه إلى حيث يذهب »

فأجاب الشاب « وهكذا يقول كل من يريد ان يتبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء والفساد ».

فسكتت راحيل مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء من التردد « ولكن في الدير غرف عديدة رحبة ، وخزائن طافحة بالذهب والفضة ، وأقبية مملوءة بالغلة والخمور ، وزرائب غاصة بالعجول والكبوش المسمنة ، فأي أمر جعلك تترك جميع هذه الاشياء وتخرج في مثل هذه الليلة ؟ »

فقال الشاب متنهداً . « قد تركت جميع هذه الاشياء وخرجت كرهاً من الدير »

فقالت راحيل « ان الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعا . وقد سمعت بأن الرجل لا يصير راهباً الا اذا نزع عنه الارادة والفكر والميل وكل مايختص بالنفس ، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرءوسيه فوق طاقتهم فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيا ان تسلم حياتك الى العواصف والثلوج ؟ »

فاجاب الشاب « ان الرجل لا يصير راهباً في عرف رئيسه الا اذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة . أما أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آلة عمياء بل انساناً يرى ويسمع »

فأحدقت به راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سراً خفياً يريد كتمانه ، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة « أيخرج الانسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصم الآذان ؟ »

فتنهد الشاب وأحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق « خرجت مطروداً من الدير »

فقالت راحيل بدهشة « مطروداً ! ؟ »

ورددت مريم هذه الكلمة متأوهة .

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمرأتين وخاف أن تتحول رأفتهما عليه الى استياء واستهجان ولكنه نظر فرأى في عينيهما أشعة الشفقة متموجة مع محبة الاستطلاع فقال بصوت مخنوق (نعم خرجت مطروداً من

الدير لأني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء . لأن نفسي أبت أن تتنعم بأموال الفقراء والمساكين . لأن روحي قد امتنعت عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم إلى الغباوة . خرجت مطروداً لأن جسدي لم يعد يجد راحة فى الغرف الرحبة التي بناها سكان الأكواخ . لان خوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة . لأن لساني لم يعد يتحرك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء . خرجت مطروداً كالأبرص القذر لأنني رددت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسساً ورهبانا »

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين اليه مستغربتين كلامه محدقتين بوجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والأخرى إلى بعضهما كأنهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التى جاءت به إليهما . حتى اذا ما نمت محبة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت اليه بانعطاف وسألته قائلة « أين أبوك وأمك يا أخي — هل هما حيان »

فأجاب الشاب والغصات الموجعة تقطع ألفاظه « ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا مسقط رأس »

فتنهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها. فنظر اليهما الشاب نظرة المغلوب إلى منجده وقد انتعشت نفسه برقة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها. ثم رفع رأسه وقال (مات أبي وأمي قبل أن أبلغ السابعة من عمري فأخذني كاهن القرية التي ولدت فيها إلى دير قزحيا فسر الرهبان بي وجعلوني راعياً للبقر ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الاسود والخشن واوقفوني أمام المذبح قائلين . اقسم بالله وقديسيه بأنك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة . فرددت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم ، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف ، وقبل أن أرى السبيل الضيقة التي سيّروني عليها . كان اسمي خليلا فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الأخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ لهم

كانوا يتنعمون باللحوم والمآكل الشهية ويطعموني الخبز اليابس والبقول المجففة ويتلذذون بالخمور والمشارب الطيبة ويسقونني الماء ممزوجاً بالدموع ويتضجعون على الأسرة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير فكنت أقول في نفسي : متى أصير راهباً يا ترى فاشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم ، وأصبح خليقاً بملذاتهم ومسراتهم فلا تقطع قلبي رائحة الطعام ، ولا تعذب كبدي ألوان الخمور ، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس . ولكن باطلا كنت أتمنى وأحلم لأني بقيت أرعى البقر في البرية وأنقل الحجارة الثقيلة على ظهري واحفر التراب بساعدي — بقيت أفعل كل ذلك لبقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيق لأنني لم أكن أعلم بأنه يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنهم علموني الكفر بكل شيء إلا معيشتهم . وسمموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام حتى ظننت بأن هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء وأن الدير هو ميناء الخلاص .

واستوى خليل جالساً وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر

كأنه رأى شيئاً جميلا منتصباً أمامه فى ذلك الكوخ . أما راحيل ومريم فلبثتا صامتتين محدقتين به وبعد هنيهة عاد فقال « ان السماء التي شاءت فأخذت والدي ونفتني يتيماً الى الدير لم تشأ أن أصرف العمر كله كالأعمى السائر في المعابر الخطرة ، ولم ترض بأن أكون عبداً تعساً متصاغراً الى نهاية الحياة ، ففتحت عينيّ وأذنيّ وأرتني النور مشعشعاً وأسمعتنى الحقيقة متكلمة » .

فهزت راحيل رأسها اذ ذاك وقالت « أيوجد نور غير النور الذى تسكبه الشمس على جميع الناس . وهل بامكان البشر أن يعرفوا الحقيقة ؟ »

فأجاب خليل قائلا : « النور الحقيقى هو ذاك الذى ينبثق من داخل الانسان ، ويبين سرائر النفس للنفس ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح . أما الحقيقة فهى كالنجوم لا تبدو إلا من وراء ظلمة الليل . الحقيقة هى مثل جميع الأشياء الجميلة فى هذا العالم لا تظهر مفاعليها

المستحبة إلا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية . الحقيقة هي تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس »

فقالت راحيل « كثار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم ، وكثار هم الذين يعتقدون بأن هذه العاطفة هي ظل الناموس الذى سنه الله للانسان . ولكنهم لا يفرحون قط بأيامهم بل يظلون تعساء حتى الموت »

فأجابها خليل قائلا « باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الانسان تعساً في حياته . وكذابة هي العواطف التي تقوده الى اليأس والحزن والشقاء . لأن واجب الانسان أن يكون سعيداً على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها أينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية . لأننا لم نجيء هذا العالم كالمنفيين المرزولين بل جئنا كالأطفال الأغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا . هذه هي الحقيقة التي عرفتها عند

ما قرأت تعاليم يسوع الناصري وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير ومن فيه كهوة مظلمة تنبعث من أعماقها الاشباح المخيفة لتميتني . هـذا هو السر الخفي الذي أعلنته البرية الجميلة لنفسي عند ما كنت أجلس جائعاً باكياً متأوهاً في ظل الأشجار . ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الخمرة السماوية تشجعت ووقفت بين الرهبان اذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة وأخذت أبين لهم أفكاري وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم . قلت لهم : لماذا نصرف الأيام في هذه الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين مستطيبين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم متلذذين بغلة الأرض المسلوبة منهم — لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل مبتعدين عن الشعب المحتاج الى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا . أن يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب فأي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف ؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم

الله بشراً . اذا كنتم أفضل من الناس السائرين فى موكب الحياة عليكم أن تذهبوا إليهم وتعاموهم وان كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعاموا .. كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالأمراء وتنذرون الطاعة وتتمردون على الانجيل وتنذرون العفة وقلوبكم مفعمة بالشهوات ... أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم . وتتظاهرون بالترفع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعاً . وتتظاهرون بالتنسك والتقشف وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى . تعالوا نعيد أراضى الدير الوسيعة الى سكان هذه القرى المحتاجين ونرجع الى جيوبهم الأموال التى أخذناها، تعالوا نتفرق إلى كل ناحية مثلما تتفرق أسراب الطيور فنخدم الشعب الضعيف الذى جعلنا أقوياء ، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها ، ونعلم هذه الأمة التعسة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية . لأن المتاعب التى نجدها بين الناس هي أجّل وأجمل من الراحة التى نستسلم إليها فى هذا المكان ، والرأفة التى نلامس

بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير ، وكلمة التعزيه التى نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة الطويلة التى نرددها في الهيكل »

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً أنفاسه ثم رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ :

« كنت أتكلم بهذه الأشياء ومايشابهها أمام الرهبان وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم كأنهم لم يصدقوا بأن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسراً بمثل هذا الكلام حتى إذا ما انهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً أسنانه « أتتجرأ أيها الضعيف وتتلفظ أمامنا بمثل هذا الكلام » واقترب آخر وقال ضاحكا مستهزئاً (هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التى رافقتها كل أيام حياتك) وجاء آخر وقال متوعداً (سوف ترى مايحل بك أيها الخبيث الكافر) ثم تفرقوا عني إلى كل ناحية مثلما يبتعد الأصحاء عن الأبرص . وذهب بعضهم وشكوني الى الرئيس فاستدعاني عند غروب الشمس وبعد أن وبخني بقساوة على مسمع من

الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجلدت بسياط من المرس، ثم حكم بسجني شهراً كاملا ، فاقتادني الرهبان متقهقهين فرحين الى غرفة رطبة مظلمة ... انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا أشعر بغير دبيب الحشرات ولا ألمس سوى التراب ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار ولا أسمع سوى وطء أقدام أحد الرهبان عند ما يجيء ويضع بقربي كسرة من الخبز اليابس المعطن وطاساً من الماء الممزوج بالخل . ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي واصفرار وجهي توهموا بأن أميال نفسي قد ماتت في داخلي وانهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي . . . مرت الأيام أثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكراً في ساعات انفرادي بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة . ولكن باطلا كنت أفتكر وأفتكر ، لأن الغشاء الكثيف الذي حاكته الأجيال الطويلة على بصائرهم لا تمزقه الأيام القليلة . والطينة التي طلت بها الغباوة آذانهم قد تحجرت فلا تزيلها ملامس الأصابع الناعمة »

وبعد سكينة مملوءة بالتنهدات رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة « هل عدت وتكلمت ثانية أمام الرهبان فطردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التى تعلم الانسان أن يكون رؤوفاً ورفوقاً حتى بأعدائه ؟ »

فقال الشاب « في هذا المساء عند ماتعاظم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء جلست منفرداً عن الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرد الحوادث والحكايات المضحكة وفتحت الانجيل متأملا بتلك الأقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر. ولما رآني الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا انفرادي سبباً للسخرية بي، فجاء بعضهم ووقفوا بقربي وأخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين، فلم أحفل بهم بل أطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة. فتململوا لذلك غيظاً ونظروا إليّ شزراً لأن سكوتي قد أيبس عواطفهم ثم قال أحدهم ساخراً (ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم) فلم أرفع عيني

نحو المتكلم بل فتحت الانجيل وقرأت منه بصوت عال هذه الآية (وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون فى نفوسكم ان لنا ابراهيم أباً لأنى أقول لكم ان الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى فى النار . وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا) عندما قرأت هذه الكلمات التى قالها يوحنا المعمدان سكت الرهبان دقيقة كأن يداً خفية قد قبضت على أرواحهم ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين ثم قال أحدهم (قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا نحتاج لرعاة البقر أن يرددوه على مسامعنا) فقلت (لو كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأففون برداً ويتضورون جوعاً وأنتم ههنا تتمتعون بخيراتهم وتشربون عصير

كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم) . . لم تخرج هذه الالفاظ من بين شفتيّ حتى صفعني أحد الرهبان على وجهي كأني لم أتكلم بغير الحماقة ، ثم رفسني آخر برجله وآخر انتزع الكتاب من يدي وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعاً وإذ اخبروه بماجرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضباً وصرخ بأعلى صوته (اقبضوا على هذا الشرير المتمرد وجروه بعيداً عن الدير ودعوا العناصر الغضوبة تعلمه الطاعة . اخرجوه الى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله ثم اغسلوا أكفكم خوفاً من سموم الكفر المتعلقة بأثوابه وإن عاد متضرعاً متظاهراً بالتوبة لاتفتحوا له الأبواب لأن الأفعى إذا سجنت في القفص لاتنقلب حمامة والعليقة إذا غرست في الكرم لاتثمر تيناً)

حينئذ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف الى خارج الدير وعادوا ضاحكين وقبل أن يوصدوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخراً (كُنتَ بالأمس ملكا وكانت رعيتك البقر والخنازير وقد خلعناك اليوم أيها المصلح لأنك أسأت

السياسة فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجائعة والغربان المتطايرة وعلمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها)

وتنهد خليل تنهيدة عميقة ثم حول وجهه ونظر إلى النار المتأججة فى الموقد . وبصوت جارح بحلاوته قال « هكذا طردت من الدير . وهكذا سامنى الرهبان إلى يد الموت فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري والأرواح الشديدة تمزق أثوابى والثلوج المترا كمة تتمسك بركابى حتى وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ يائس شعر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة . ولكن من وراء الثلوج والأرياح ، من وراء الظلمة والغيوم ، من وراء الأثير والكواكب ومن وراء كل شئ قوة هي كل معرفة وكل رحمة قد سمعت صراخي وندائى فلم تشأ أن أموت قبل أن أتعلم مابقى من سرائر الحياة فبعثتكما إلي لكى تسترجعانى من أعماق الهاوية والعدم »

وسكت الشاب والامرأتان تنظران إليه بانعطاف

واعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه وأشتركتا معها بالشعور والمعرفة . وبعد هنيهة مدت راحيل يدها أسير ارادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمع فى عينيها « ان من تختاره السماء نصيرا للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف »

وهمست مريم قائلة « ان العواصف والثلوج تفنى الزهور ولكنها لا تميت بذورها »

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصفر مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الأُفق « إن كنتما لا تحسبانى متمردا وكافرا كما يحسبنى الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته فى الدير رمزا للشدة التى تعانيها الأُمة قبل بلوغها المعرفة . وتكون هذه الليلة التى كادت تميتنى شبيهة بالثورات التى تتقدم الحرية والمساواة . لأن من قلب الامرأة الحساس . تنبثق سعادة البشر ومن عواطف نفسها الشريفة تتولد عواطف نفوسهم »

قال هذا واتكأ على الوسادة فلم تشأ الامرأتان متابعة

الحـديث لأنهما عرفتا من نظراته بأن النعاس المتولد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه .

ولم تمر بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأمن على ذراعي أمه فقامت راحيل بهدوء واتبعتها مريم وجلستا على فراشها تنظران إليه كأن في وجهه الذابل جاذباً يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما . ثم همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت « في عينيه المطبقتين قوة غريبـة تتكلم بالسكينة وتنبه أميال النفس »

وقالت الابنة « يداه يا أماه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الـكنيسة »

فهمست الوالدة « على وجهه الـكئيب ظاهرة رقة الامرأة وقوة الرجل »

وحملت أجنحة الكرى روحي الامرأتين إلى عالم الأحلام . وخمدت النار في الموقد وتحولت الى رماد . ثم جف زيت السراج فشح نوره ببطء ثم انطفأ . وظلت العاصفة الغضوبة تضج خارجاً والجو القاتم ينثر رقع الثلوج والأرياح العنيفة تقذفها يميناً وشمالا .

٤

مضى أسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد بالغيوم يسكن حيناً ثم يثور متهيجاً غامراً الأودية بالضباب مكفناً الطلول بالثلوج . وقد هم خليل ثلاث مرات أن يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده بلطف وانعطاف قائلة

« لا تسلم حياتك ثانيةً إلى العناصر العمياء بل ابق ههنا ياأخي فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة ، والنار في هذا الموقد تظل متقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله . نحن فقراء يا أخي ولكننا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع الناس لان الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا »

أما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب لأنها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت الحقير شعرت بوجود قوة علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع الى قلبها وتنبه عواطف

جديدة مستحبة في قدس من أقداس روحها — لأنها شعرت لأول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التى تجعل قلب الصبية النقى مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر .

لا يوجد فى داخل الانسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة الخفية التى تستفيق على حين غفلة فى قلب الصبية وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية وتجعل أيامها شبيهة بأحلام الشعراء ولياليها مثل الأنبياء . ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سر أقوى وأجمل من ذلك الميل الذى يحول سكينة نفس العذراء إلى حراك مستمر يميت بعزمه ذكرى الأيام الغابرة ويحيي بحلاوته الآمال بالأيام الآتية .

والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الأمم بقوة عواطفها ورقة إحساسها لأن التربية البسيطة التى تحرم عاقلتها من النمو وتوقف مداركها عن الارتقاء تحول نفسها الى استفسار ميول نفسها وتشغل قلبها باستطلاع خفايا قلبها . الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الارض بين المنخفضات

فلا يجد ممراً ليسير به نهرا نحو البحر فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعة القمر والنجوم

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه ، وعرف بأن الشعلة المقدسة التى أحاطت بقلبه قد لامست قلبها . ففرح لأول وهلة فرح طفل ضائع وجد أمه ولكنه عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغافها ظناً منه بأن هذا التفاهم الروحى سيضمحل كالضباب عند ماتفصله الأيام عن تلك القرية فكان يناجى نفسه قائلا « ما هذه الأسرار الخفية التى تتلاعب بنا ونحن غافلون — وما هذه النواميس التى تُسيرنا تارة على سبل وعرة فنسير منقادين ، وتوقفنا طورا أمام وجه الشمس فنقف فرحين ، وتبلغنا مرة قمة الجبل فنبتسم متهللين وتهبط بنا أخرى الى أعماق الوادى فنصرخ متوجعين ؟ ما هذه الحياة التى تعانقنا يوما كالحبيب ويوما تضعفنا كالعدو ؟ ألم أكن بالأمس مكرهاً مضطهداً بين رهبان الدير ، أو لم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التى أيقظتها السماء في صدري ، أولم أقل للرهبان بأن

السعادة هي مشيئة الله في الانسان ؟ إذاً ما هذا الخوف ،
ولماذا أغمض عيني وأحول وجهي عن النور المنبعث من
عيني هذه الصبية ؟ أنا مطرود وهي فقيرة ولكن أبالخبز
وحده يحيا الانسان؟ أوليست الحياة دينا ووفاء . أولسنا بين
العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف ؟ ولكن ماذا
تقول راحيل إذا علمت بأن روح الفتى المطرود من الدير
وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من
دائرة النور الأعلى؟ وماذا تفعل ياترى إذا مادرت بأن الشاب
الذي خلصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها؟
وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء إذا ماعلموا بأن فتى رُبي
في الدير وخرج منه مطروداً لجاء قريتهم لكي يعيش بقرب
صبية جميلة ؟ أفلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم بأن الذي
يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة
القفص إلى النور والحرية ؟ وماذا يقول الشيخ عباس العائش
بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد إذا ما سمع
حكايتي ؟ وماذا يفعل كاهن القرية إذا ماردوا على مسامعه

تلك الأقوال التي سببت طردي من الدير ؟ »

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمل بألسنة النار الشبيهة بعواطفه . أما مريم فكانت تختلس النظرات إليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه وتسمع صدى أفكاره خارجاً من صدرها وتشعر بخيالات هواجسه متمايلة حول قلبها

ففي عشية يوم وقد وقف خليل بقرب الكوة المطلة نحو الوادي ، حيث الأشجار والصخور الملتحفة بالثلوج التحاف الأموات بالأكفان ، جاءت مريم ووقفت بجانبه ونظرت من الكوة الى الفضاء ، فالتفت نحوها واذ التقت عيناه بعينيها تنهد تنهيدة محرقة ثم حول وجهه وأغمض أجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة : « الى أي مكان تذهب عند ما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات »

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وأحدق بالأفق البعيد « سوف اتبع الطريق إلى حيث لا أعلم »

فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهدة : « لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منا . أليست الحياة ههنا أفضل من القرية البعيدة »

فأجابها وقد اضطربت أحشاؤه لرقة كلماتها ونغمة صوتها « إن سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحييهم ، لأنهم يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقديسيه »

فتأوهت مريم ولبثت ساكنة لأن الحقيقة الجارحة قد أخرستها . حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال « إن سكان هذه القرى يا مريم قد تعلموا من الرهبان والكهان بغض كل من يفتكر لذاته ، فصاروا يقلدونهم ويبتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين . فإذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها تعالوا يا اخوتي نعبد ونصلي حسب مشيئة نفوسنا لا مثلما يريد

الرهبان والقسس ، لان الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلد غيره ، يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهانه . وإن قلت لهم اصغوا يا اخوتي واسمعوا صوت قلوبكم واعملوا بإرادة الروح الكائنة في أعماقكم يقولون هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض »

ونظر خليل اذ ذاك الى عيني مريم وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضية قال : « ولكن في هذه القرية يامريم قوة سحرية تمتلكني وتتشبث بنفسي — قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت إلي قساوتهم . في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه وفيها عانقت روحي روح الله . في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الأشواك المحيطة بها . ماذا أفعل يامريم ؟ »

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزت قامتها مثلما ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر ، وفاضت أشعة قلبها من مقلتيها فقالت والحياء يغالب لسانها « كلانا بين يدي قوة خفية عادلة رحومة فلندعها تفعل ما تشاء بنا »

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم وصارت نفساهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور وتتضوع حولها البخور .

٥

منذ ابتداء الدهر إلى أيامنا هذه والفئة المتمسكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء الأديان على الشعب . هي علة مزمنة قابضة بأظافرها على عنق الجامعة البشرية وان تزول إلاّ بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكا ويصبح قلب كل امرأة كاهناً

إبن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء . والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين . . الأمير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين والكاهن يمد يده إلى جيبه . . الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسما . وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع . الحاكم يدعي تمثيل الشريعة والكاهن يدعي تمثيل الدين وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحل الأرواح .

وفي لبنان — ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير الى نور المعرفة — قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرث الأرض ويستغلها كيما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني .

إبن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانين قائلا « قد أقامني السلطان ولياً على أجسادكم » والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً « قد أقامني الله وصياً على أرواحكم » أما اللبنانيون فيظلون صامتين لأن القلوب المغلغلة بالتراب لا تنكسر . لأن الأموات لا يبكون .

فالشيخ عباس الذي كان في تلك القرية ولياً وحاكما وأميرا كان محباً لرهبان الدير ، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم ، لأنهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه .

ففي ذلك المساء — بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب وراحيل تنظر اليهما بانعطاف مستطلعة خفايا

نفسيهما — ذهب الخوري الياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس بأن الرهبان الأتقياء قد طَردوا من الدير فتى متمردا شريرا وأن هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سمعان الراعي .

ولم يكتف الخوري الياس بابلاغ الشيخ هذا الخبر بل زاد قائلا : « إن الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكا في هذه القرية والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي أثمارا جيدة وهي في الموقد . فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طردَهُ الرهبان من الدير »

فسأله الشيخ عباس قائلا : « وكيف عرفت بأن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلة الخبيثة . أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطورا للكروم أو راعياً للبقر ؟ نحن بحاجة ماسة إلى العمال فاذا ما جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه .

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ثم قال ممشطاً لحيته الكثيفة بأصابعه « لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان لأن أراضي الدير وسيعة وقطعانه لا تحصى. وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس بأن هذا الشاب كان يردد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثورية تدل على طيشه وخباثته، فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلا « أرجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله إلى سكان هذه القرى الفقراء وتفرقوا إلى كل ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة » وأخبرني المكاري أيضاً بأن قساوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن لم تعد لهذا الكافر صوابه بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلما تكثر أوساخ المزابل عدد الحشرات »

فانتصب الشيخ عباس على أقدامه ونظير نمر يتراجع قليلا الى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكتاً هنيهة يصرّ أسنانه وينتفض غيظاً. ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه

بصوت عال فجاء ثلاثة منهم ووقفوا أمامه مستطلعين أمره، فخاطبهم قائلا : « في بيت راحيل الأرملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب فاذهبوا الآن وقودوه اليّ مكتوفاً وإن قاومتكم تلك الامرأة اقبضوا عليها وجروها على الثلج بجدائل شعرها لأن من يساعد الشرير يكون شريرا »

فأحنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمموا مشيئة سيدهم، وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما يجب أن يفعلاه بالشاب المطرود وراحيل الأرملة .

٦

توارى النهار وقَدِمَ الليلُ ناشراً خيالاته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج. وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزاع والموت. فأوصد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السراج وجلسوا يصطلون بقرب الموقد غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم .

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء طرق الباب ودخل عليهم خدام الشيخ عباس ، فالتفتت راحيل مذعورة وشهقت مريم مرتاعة ، أما خليل فلبث هادئاً كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم . فاقترب أحد الخدام وألقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت أجش « ألست أنت الشاب المطرود من الدير ؟ » فأجابه خليل ببطء « أنا هو فماذا تريدون »

فقال الرجل « نريد أن نسير بك مكتوفاً الى منزل الشيخ عباس وان أبديت ممانعة نجرك على الثلج كالخروف المذبوح »

فانتصبت راحيل وقد اصفر وجهها وتجمدت جبهتها وقالت بصوت مرتجف « أي ذنب أتاه أمام الشيخ عباس ولماذا تريدون جره مكتوفاً »

وقالت مريم ونغمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها « هو فرد وأنتم ثلاثة فمن الجبانة أن تتحالفوا على إذلاله وتعذيبه »

فصرخ الخادم وقدحمي غضبه « أيوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس » قال هذا وانتشل من وسطه حبلا متيناً وهم ليوثق به كتفي خليل . فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه بل ظل رأسه مرفوعا كالبرج أمام الزوبعة .وسالت على شفتيه ابتسامة محزنة ثم قال « أنا أشفق عليكم أيها الرجال لأنكم آلة قوية عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم . أنتم عبيد الغباوة

والغباوة هي أشـد اسوداداً من بشرة الزنوج ، وأكثر استسلاماً للحيف والقساوة : كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرون مثلي ، أما الآن فبيننا هوة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون ، ها أنذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ماشئتم »

سمع الرجال هذا الكلام فجمدت عيونهم واقشعرت أبدانهم وبُهتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم وأيقظت الميول العلوية الهاجعة في أعماق قلوبهم ، ولـكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تململ في مسامعهم وذكّرهم بالمهمة التي بعثهم من أجلها . فتقدموا وأوثقوا ساعـدي الشاب ، وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم . فاتبعتهم راحيل ومريم ونظير بنات أورشليم عند ما اتبعن يسوع الى الجلجلة سارتا خلف خليـل نحو منزل الشيخ عباس .

٧

إن الأخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ، لأن بُعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم أن ينصرفوا بكليتهم إلى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي أيام الشتاء عند ما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لُحف الثلوج وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلا الى استطلاع الأخبار لكي يملأوا بتأثيراتها أيامهم الفارغة ويصرفوا باستفسارها لياليهم الباردة .

وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتركوا أكواخهم وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرقين ، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الوسيعة الرجال والنساء والصبيان

وكلهم يمدون أعناقهم بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الأرواح الشريرة على بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهم .

جلس الشيخ عباس على مقعد عال وتربع بجانبه الخوري الياس ووقف الفلاحون والخدام مترقبين محدقين بالفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات. أما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء الحب فاستيقظت ؟

ونظر الشيخ عباس إذ ذاك نحو الشاب وبصوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلا : « ما اسمك أيها الرجل »

فأجابه : اسمي خليل . فقال الشيخ : « من هم أهلك وذووك واين مسقط رأسك »

فالتفت خليل نحو الفلاحين الناظرين اليه بكره واشمئزاز وقال: « الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي. وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي »

فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال: « ان الذين تنتسب اليهم يطلبون معاقبتك والبلاد التي تدعيها وطناً تأبى أن تكون من سكانها »

فقال خليل وقد اضطربت أحشاؤه « ان الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتسلمهم الى قساوة العتاة والظالمين. والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد محبيها ومخلصيها. ولكن أيترك الابن الصالح والدته اذا كانت مريضة. وينكر الأخ الرؤوف أخاه اذا كان تعساً. إن هؤلاء المساكين الذين أسلموني اليك مكتوفاً اليوم هم الذين أسلموك رقابهم بالأمس. والذين أوقفوني مهاناً أمامك هم الذين يزرعون حبات قلوبهم في حقولك ويهرقون دماء أجسادهم على أقدامك وهذه الأرض التي تأبى أن أكون من سكانها هي الأرض التي لا تفغرُ فاها وتبتلع الطغاة والطامعين »

فقهقه الشيخ عباس ضاحكا كأنه يريد أن يغرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير الى أرواح السامعين البسطاء ثم قال : « أولم تكن راعياً لثيران الدير أيها الشاب الوقح فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطروداً؟ هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رأفة بالمجاذيب الملحدين من الرهبان الأتقياء »

فأجابه خليل : « كنت راعياً ولم أكن جزاراً . كنت أقودُ العجولَ إلى المروج الخضراء والمراعى الخصبة ولم أسر بها قط الى الطلول الجرداء . كنت أوردها الينابيع العذبة وأبعدها عن المستنقعات الفاسدة . كنت أعيدها في المساء إلى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة . هكذا كنت أفعل بالبهائم ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يُبيد جوعا في الأكواخ المظلمة . لو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالساً الآن على هذا المقعد الحريري وهم

واقفون أمامك وقوف القضبان العارية أمام ريح الشمال »

فتحرك الشيخ عباس منزعجاً ، وتلمعت على جبهته قطرة عرق باردة ، وتبدل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه ثم قال مشيراً بيده «لم نأت بك مكتوفاً أيها الكافر لنسمع هذيانك ، بل احضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرير فاعلم إذاً بأنك واقف الآن أمام سيد هذه القرية وممثل إرادة الامير أمين الشهابي أيده الله (١) وامام الخوري الياس ممثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها . فدافع إذاً عن نفسك مما اتهمت به أو فاركع مسترحماً نادما أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك ، فنغفر لك ونجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في الدير »

فأجاب الشاب بهدوء : «إن المجرم لايحاكمه المجرمون والكافر الشرير لايدافع عن نفسه أمام الخطاة »

---

(١) الامير أمين شهاب هو ابن الامير بشير الكبير وقد حكم الجبل بعد موت أبيه .

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الوسيعة وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس الفضية ناداهم قائلا « أيها الاخوة ، إن الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيداً على حقولكم قد أحضرني مكتوفاً ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم ، والرجل الذي جعله أيمانكم كاهناً في كنيستكم قد جاءني ليدينني ، ويساعد على تعذيبي وإذلالي . أما أنتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألما وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً . قد تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشاهدوا ابنكم وأخاكم مكتوفا مُهاناً . قد أسرعتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالب الكواسر . قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً أمام القضاة . أنا هو المجرم . أنا هو الكافر الذي طرد من الدير فحملته العاصفة إلى قريتكم . أنا هو ذلك الشرير فاسمعوا احتجاجي ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء . أما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء . قد اخترتكم قضاتي لأن ارادة الشعب

هي مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم . قد قيل لكم بأني رجل كافر شرير ولكنكم لم تعرفوا ماهي جريمتي . وقد رأيتموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الضباب ، أما العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل . جريمتي أيها الرجال هي ادراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم . وآثامي أيتها النساء هي شفقتي عليكن وعلى أطفالكن الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلهات الموت . أنا واحد منكم أيها الجمع وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تستفرغ قواكم وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم . أنا أؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجعة ويرى صدوركم المقروعة وأؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس وأؤمن بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الأرض موطئ اقدام الله . . كنت في الدير راعياً للبقر لكن انفرادي مع البهائم الخرساء في البرية الساكنة لم يُعمِ عن المأساة

الأليمـة التي تتلونها كرهاً في الحقول . ولم يصمّ اذني عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الأكواخ . قد نظرت فرأيتنى في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعـاج سائر وراء ذئب خاطف إلى وكره فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحددة ، ثم احتال علي وأبعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرد ويتفرق مذعوراً إلى كل ناحيـة ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل . . قد احتملتُ السجنَ والجوعَ والعطشَ من أجـل الحقيقة الجارحة التي رأيتهـا مكتوبة بالدماء على وجوهكم ، وقاسيتُ العذابَ والجلدَ والسخريةَ لأني جعلت لسكينة تنهيداتـكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلايا الدير . ولـكنني لم أخف قط ولم يضعف قلبي لأن صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجـدد قواي ويحبب إلي الاضطهاد والاحتقار والموت . . أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين (أي متى صرخنا متظلمين وأي فرد منا يتجاسر أن يفتح شفتيه) وأنا أقول لـكم بأن نفوسكم تصرخ متظلمة في كل يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة ولـكنكم

لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم لان المنازع لا يسمع حشرجة صدره أما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون . والطائر المذبوح يرقص متململاً أسر ارادته ولا يعلم . أما الناظرون فيعلمون . . في أي ساعة من النهار لا تتأوه أرواحكم متوجعة ؟ أفي الصباح عند ما تنتهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول. أم في الظهيرة عندما تتمنون الجلوس في ظل الأشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون . أم في المساء عند ما تعودون جائعين إلى أكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر ؟ أم في الليل عند ما تطرحكم المتاعب على الأسرة الحجرية فتنامون قلقين ولا يكتحل النعاس أجفانكم إلاّ وتهبون خائفين متوهمين صوت الشيخ يرن في آذانكم ؟ . . وفي أي فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة ؟ أفي الربيع عند ما ترتدي الطبيعة حلة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزقة ؟ أم في الصيف عندما تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملأون أهراء سيدكم الظلوم بالغلة ولا تحصلون لقاء أتعابكم على غير التبن

والزوان ؟ أم في الخريف عندما تجنون الأثمار وتعصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط ؟ أم في الشتاء عند ما يضطهدكم الفضاء ويطردكم البرد والزمهرير إلى الأكواخ الملتحفة بالثلوج ، فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين غضب الزوابع والعواصف ؟ هذه هي حياتكم أيها الفقراء . هذا هو الليل المخيم على أرواحكم أيها التعساء ، هذه هي أشباح ذُلكم وشقائكم أيها المساكين ، هذا هو الصراخ الأليم المستمر الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم فاستيقظت وتمردت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم ، ووقفت منفردا متظلما باسمكم واسم العدالة المتوجعة بأوجاعكم فحسبوني كافرا شريرا وطردوني من الدير فجئت لكي أشاطركم التعاسة وأعيش بقربكم وأمزج دموعي بدموعكم فاسلمتموني مكتوفا إلى عدوكم القوي الذي يغتصب خيراتكم ويحيا غنيا بأموالكم ويملأ جوفه الوسيع من أثمار أتعابكم . . . ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون بأن الأرض التي تحرثونها وتحرمون غلتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عند ما كانت

الشريعة مكتوبة على حد السيف ؟ أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عند ما كانت آيات الدين مخطوطة على شفتي الكاهن ؟ ألا تعلمون بأن ممثلي الدين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟ أي رجل منكم لم يَلْوِ عُنقَه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول ؟ وأي امرأة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة ؟ ..

« قد سمعتم بأن الله قد قال للانسان الأول (بعرق جبينك تأكل خبزك) فلماذا يأكل الشيخ عباس خُبزَهُ مجبولا بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجاً بدموعكم ؟ هل ميز الله هذا الرجل وجعله سيداً إذ كان في رَحْمِ أمه أم غَضِبَ عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة لكي تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلون غير أشواك الأودية، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنون غير الأكواخ المتداعية ؟ .. قد سمعتم بان يسوع الناصري قد قال لتلامذته (مجاناً أخذتم ومجاناً أعطوا . . لا تقتنوا فضة ولا ذهباً ولا

نحاساً فى مناطقكم)إذاً أي تعاليم أباحت للرهبان والكهان بيع صلواتهم وتعازيهم بالفضة والذهب ؟ . . أنتم تصلون فى سكينة الليالى قائلين (أعطنا يارب خبزنا كفاف يومنا) والرب قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز والكفاف فهل وَهَبَ رؤساءُ الأديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم ؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيدهُ بالفضة فأي شيء يجعلكم أن تباركوا الذين يبيعونه فى كل يوم من حياتهم ؟ إن يهوذا التعس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه ، أما هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة وأذيال طويلة ناعمة وقلائدَ ذهبية وخواتم ثمينة . أنتم تعلمون أبنائكم محبة الناصري فكيف تعلمونهم الخضوع أمام مبغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه ، قد عرفتم بأن رسل المسيح قد ماتوا قتلا ورجماً لكي يُحيوا فيكم الروح المقدسة فهل تعرفون بأن الرهبان والكهان يقتلون أرواحكم لكي يَحيوا متمتعين بخيراتكم متلذذين بحرتقة قيودكم ، ماذا يغركم أيها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين أمام صنم مخيف أقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم . وأي كنز

ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرثاً لابنائكم ؟

« نفوسكم في قبضة الكاهن ، وأجسادكم بين مخالب الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحزان . فأي شيء في الحياة يمكنكم أن تشيروا إليه قائلين (هذا لنا) أتعرفون أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصياً على أقدس أسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبين لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره .. هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم ومرائي يقلده المؤمنون صليباً جميلا فيمتشقه سيفا سنينا ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ولا يتركها حتى تنسحق كالفخار وتتبدد كالرماد .. هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفا وينام مطمئنا وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة إثر نعجة ؛ هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل ، وطامع يتبع الدينار إلى مغاور الجن ويمتص دماء العباد مثلما تمتص رمال الصحراء قطرات المطر ، وبخيل يحرص على أنفاسه

ويدّخرُ مالاً يحتاجه . هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج إلا بسقوط البيت . ولص صخري القلب ينتزع الدرهم من الأرملة والفِلْس من اليتيم . هو مخلوق عجيب له منقاد النسر ومقابض النمر وأنياب الضبع وملامس الأفعى، خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضعوا الدينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بمحبة، اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم أجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزامه لينمو جوفه بمآكلكم ومشاربكم . . جدفوا على اسم ربه واقذفوا بعقائده واسخروا بإيمانه ثم ابعثوا اليه بجرة من الخمر أو بسلة من الفاكهة فيسامحكم ويبرركم أمام الله والناس . يرى الامرأة فيجول وجهه قائلا بأعلى صوته (ابتعدي عني يا ابنة بابل) ثم يهمس بسره قائلا . (الزيجة أفضل من التحرق) . . يرى الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلا (باطلة الأباطيل وكل شيء تحت الشمس باطل) ثم يختلي ويتنهد قائلا : (لتفن الشرائع وتضمحل التقاليد التي أبعدتني عن غبطة الحياة : وأحرمتني

ملذات العمر) . . يقول للناس مستشهداً (لا تدينوا لئلا تدانوا) ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه ويبعث بأرواحهم الى الجحيم قبل أن يبعدهم الموت عن هذه الحياة . . يحدثكم رافعا عينيه بين الآونة والأخرى نحو العلاء أما فكرته فتظل منسابة كالأفعى حول جيوبكم . يناديكم بقوله لكم (يا أولادى ويا أبنائى) وهو لا يشعر بالعاطفة الابوية ولا تبتسم شفتاه لرضيع ولا يحمل طفلا على منكبيه . يقول لكم هازاً رأسه بتخشع (لنترفعن عن العالميات لأن أعمارنا تضمحل كالضباب وأيامنا تزول كالفيء) وإذا نظرتم جيداً رأيتموه متمسكا بأذيال الحياة متشبثاً بأهداب العمر ، متأسفاً على ذهاب الأمس ، خائفاً من سرعة اليوم ، مترقباً مجيء الغد . . يطلب منكم الاحسان وهو أوفر منكم مالا فإن أجبتموه يبارككم علناً وان منعتموه يلعنكم سراً . . في الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين وحول منزله يصرخ الجائعون وأمام عينيه تمد أيدى البائسين فلا ينظر ولا يسمع ... يبيع صلاته ومن لا يشترى يكون كافراً بالله وانبيائه محروماً من الجنة والنعيم .

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيها المسيحيون . هذا هو الراهب الذي يمتص دماءكم أيها الفقراء . هذا هو الكاهن الذي يرسم إشارة الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله . هـذا هو الأسقف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيداً ، وتطوبونه قديساً فيصير شيطاناً ، وترفعونه نائبا فيصبح نيراً ثقيلا . هذا هو الظل الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها إلى الابدية ، هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني لأن روحي تمردت على أعداء يسوع الناصري الذي أحبكم ودعاكم إخوة له ثم صلب من أجلكم »

وتهلل وجه الشاب المكتوف وقد شعر باليقظة الروحية المتمايلة في صدور سامعيه واتضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين اليه فرفع صوته وزاد قائلا « قد سمعتم أيها الاخوة بأن الشيخ عباس قد أقامه الامير أمين الشهابي سيداً على هذه القرية . وسمعتم أيضاً بأن الأمير قد أقامه المليك حاكما على هذا الجبل فهل سمعتم أو رأيتم القوة التي أقامت المليك ربا على هذه البلاد ؟ أنتم لا تَرَوْنَ تلك القوة

متجسدة ولا تسمعونها متكاملة ولكنكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم ، وتسجدون أمامها مصلين مبتهلين وتنادونها بقولكم (ابانا الذي في السماوات) نعم إن أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء وهو القادر على كل شيء . ولكن هل تعتقدون بأن أباكم الذي أحبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين ومرذولين ؟ هل تعتقدون بأن الله الذي يُنزلُ السحابَ مطراً ، ويستنبت البذور زرعا ، وينمي الزهور أثماراً ، يريد أن تكونوا جياعا محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخاً متلذذاً ؟ هل تعتقدون بأن الروح السرمدي الذي يوحي اليكم محبة الزوجة والرأفة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيداً قاسيا يظلمكم ويستعبد أيامكم ؟ هل تعتقدون بأن النواميس الأزلية التي تحبب اليكم نور الحياة تبعث إليكم بمن يحبب اليكم ظلمة الموت ؟ هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت القُوى في أُجسادكم لكي تعود وتخضعها أمام الضعف ؟ أنتم لا تعتقدون بهذه الأشياء لأنكم إن فعلتم تكونون كافرين بالعدل الالهي جاحدين نور الحق الذي يضيء على

جميع الناس . إذاً أي شيء يجعلكم أن تساعدوا الشر على نفوسكم ؟ ولماذا تخافون مشيئة الله الذي بعثكم أحراراً الى هذا العالم وتصيرون عبيداً للمتمردين على ناموسه ، كيف ترفعون أعينكم نحو الله القوي وتدعونه أبا ثم تحنون رقابكم أمام الانسان الضعيف وتدعونه سيداً ؟ كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر ، أما دعاكم يسوع إخوة فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدما ؟ أما جعلكم يسوع أحراراً بالروح والحق فكيف يجعلكم الأمير عبيداً للحَيْف والفساد ؟ أما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء فكيف تخفضونها الى التراب ؟ أما سكب يسوع النور في قلوبكم فكيف تغمرونها بالظلام ؟ .. ان الله قد بعث أرواحكم فى هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالا باستطلاعها خفايا الأيام والليالي فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ . إن الله قد وهب نفوسكم أجنحة لتطير بها سابحة فى فضاء الحب والحرية فماذا تجزّونها بأيديكم وتدبون كالحشرات على أديم الأرض . ان الله قد وضع فى قلوبكم بذور السعادة فكيف تنتزعونها

وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها الأرياح ؛ ان الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على سبل الحق وتملأوا صدورهم بأغاني الكيان وتتركوا لهم غبطة الحياة إرثاً ثميناً فكيف تهجعون وتخلفونهم أمواتاً بين أيدي الدهر ، غرباء في أرض مولدهم ، تعساء أمام وجه الشمس ؟ أوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أما رأيتم عصافير الحقل تدرب فراخها على الطيران فكيف تعلمون صغاركم جر القيود والسلاسل ؟ أما رأيتم زهور الأودية تستودع بذورها حرارة الشمس فكيف تسامون أطفالكم إلى الظلمة الباردة »

وسكت خليل هنيهة كأن أفكاره وعواطفه قد نمت واتسعت فلم تعد ترتدي الألفاظ ثوباً ثم قال بصوت منخفض « ان الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من أجله ، والروح التي شعرتم بتموجاتها في قلوبكم هي الروح التي أوقفتني مكتوفاً أمامكم ، فإن وثب علي سيد حقولكم وكاهن كنيستكم وصرعاني أموت سعيداً فرحاً لأني بإظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون

جُرماً هائلاً لقد تمت مشيئة بارئي وباريكم »

كان خليل يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين اليه باعجاب يشابه استغراب الأعمى إذا ما أبصر فجأة وتهتز لحلاوتها نفوس النساء المحدقات به بأعين طافحة بالدموع . أما الشيخ عباس والخوري الياس فكانا يرتجفان غضباً ويتلويان كالمطروحين على وسائد من الأشواك . وقد حاول كل منهما أن يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع لأنه كان يخاطب الجمع بقوة علوية تشابه العاصفة بعزمها والنسيمَ برقتها .

ولما انتهى خليل من كلامه وقد تراجع قليلا إلى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم حدث سكوتٌ عميقٌ كأن روحَهُ المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حولت بصائر القرويين نحو مكان قصي وانتزعت الفكر والارادة من نفسي الشيخ والكاهن وأوقفتهما مرتعشين أمام أشباح ضميريهما المزعجة .

حينئذ وقف الشيخ عباس وقد تقلصت ملامحه واصفر وجهه وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلا بصوت مخنوق .

« ما أصابكم أيها الكلاب ؟ هل تسممت قلوبكم وجمدت الحياة فى داخل أجسادكم فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهزار .. هل اكتنفت روح هذا الشيطان أرواحكم وكبلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا إبادته »

قال هذه الكلمات وامتشق سيفا كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلا بهدوء : « أغمد سيفك ياسيدي لأن من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك »

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلا « هل يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته »

فأجابه الرجل : « الخادم الأمين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة »

وتقدم رجل آخر وقال : « لم يقل هذا الفتى شيئا يستوجب الحكم فلماذا تضطهده »

ورفعت امرأة صوتها وقالت « لم يقذف بالدين ولم

بنعمة سيدكم أيها الأجلاف وتجحدون فضله وتنكرونه من أجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة »

فأجابه أكبر الخدام سناً وقال « قد خدمنا الشيخ عباس لقاء الخبز والمأوى ولكننا لم نكن له عبيداً قط » قال هذا ونزع عباءته وكوفيته وطرحهما أمام الشيخ عباس وزاد قائلا : « لا أريد أن أنعّم جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما تبقى نفسي متعذبة في منزل سفّاك الدماء »

ففعل الخدام كافة نظيره وانضموا الى الجمع وعلى وجوههم سيماء الانعتاق والحرية .

فلما رأى الخوري الياس مافعلوه وقد شعر بأن سلطته الكاذبة قد تضعضعت خرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة التي أتت بخليل الى تلك القرية .

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وحل وثاق خليل ونظر الى الشيخ عباس المرتمي على كرسيه كجثة هامدة وبلهجة مملوءة بالعزم والارادة خاطبه قائلا : « إن الشاب الذي أحضرته مكتوفا لكي تحاكمه كمجرم أثيم قد أنار قلوبنا المظلمة وحول بصائرنا نحو سبل الحق والمعرفة . والأرملة

البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة قد أبانت لنا السر الهائل الذي ظل مكتوما خمسة أعوام . أما نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار بديمونة البريء واضطهاد العادل والآن وقد انفتحت أعيننا وأرتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا ندينك ، ونهملك ولا نشكوك ونبتعد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك »

وارتفعت اذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة فكان هذا يقول : هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا . وذا يصرخ : تعالوا نتبع الشاب الى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية وأقواله العذبة . وذاك يهتف : لنفعلن ارادة خليل فهو أعلم بحاجاتنا وأدرى منا بمطالبنا . وغيره يقول : إن كنا نريد العدل والانصاف فلنذهب غدا إلى الأمير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب اليه أن يعاقبه . وآخر يصيح : يجب ان نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلا ممثلا له في هذه القرية . وغيره يقول يجب ان نشكو الخوري الياس إلى الأسقف لأنه يشارك الشيخ بجميع أعماله .

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية وتهبط كالسهام الحادة على صدر الشيخ الخفوق رفع خليل يده وأسكت الجمع باشارة ثم ناداهم قائلا « اسمعوا وتبصّروا أيها الإخوة ولا تكونوا متسرعين أنا أطلب اليكم باسم محبتي ألا تذهبوا الى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ لأن الكواسر لا تنهش بعضُها البعض . ولا تشكوا الكاهن الى رئيسه لأن الرئيس يعلم ان البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب ، ولا تطلبوا أن أكون ممثلا للحاكم في هذه القرية لان الخادم الأمين لا يريد ان يكون عوناً للسيد الشرير. ان كنت خليقاً بحبكم وانعطافكم دعوني أعيش بينكم وأشاركم بافراح الحياة وأحزانها ، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل ، لأنى ان لم أكن كواحد منكم أكون كالمرائيين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة تعالوا نذهب تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسه على الابرار والاشرار»

قال هذا وخرج من ذلك المكان فاتبعه الجمع كأن في

شخصه قوة تتحول نحوها الابصار كيفما تحولت . وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهدوم متوجعاً كالقائد المغلوب . ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعته الفضية في السماء التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالخراف الناظرة الى راعيها فتحركت روحه في داخله كأنه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة وشاهد في تلك الاكواخ الحقيرة المكتنفة بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغمورة بالذل والهوان ، فوقف وقفة نبي يسمع صراخ الأجيال ، وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كأن نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجر قيود العبودية في تلك الأودية ، فرفع كفيه نحو العلاء وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلا :

« من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفّنا نحوكِ فانظرينا . وعلى هذه الثلوج نسجد أمامكِ فارحمينا . أمام عرشكِ الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملطخة بدمائهم، عافرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم ، حاملين

السيوف التي أُغمدت بأكبادهم ، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم ، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم ، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم ، فاصغي أيتها الحرية واسمعينا . . من منبع النيل الى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة الى جبهة لبنان تمتد اليك الأيدي مرتعشة بنزاع الموت ، ومن شاطىء الخليج الى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة ، فالتفتي أيتها الحرية وانظرينا : في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تقرع أمامك الصدور ، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب ، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن اليك الأرواح ، فانظري أيتها الحرية وارحمينا .. في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة ، فاشفقي أيتها الحرية وخلصينا . . في

شوارعنا الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطى أثمانها الى لصوص المغرب ، ولا من ينصحهُ ، وفى حقولنا المجدبة يحفر الفلاح الأرض بأظافره ، ويزرعها حبات قلبه ، ويسقيها دموعه ، ولا يستغل غير الأشواك ولا من يعلمه. وفى سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يترأف عليه ، فتكلمي أيتها الحرية وعلمينا .

« نعاجنا ترتعى الأشواك والحسك بدلا من الزهور والأعشاب، وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلا من الذرة، وخيولنا تلتهم الهشيم بدلا من الشعير فهلمي أيتها الحرية وانقذينا .

« منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا فأي متى يجيء الفجر ، من الحبوس الى الحبوس تنتقل أجسادنا والأجيال تمر بنا ساخرة فإلى متى نحتمل سخرية الأجيال ؟ ومن نير ثقيل إلى نير أثقل تذهب أعناقنا وأمم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة منا فإلى مَ نصبر على ضحك الأمم ؟ ومن القيود إلى القيود تسير ركابنا فلا القيود تفنى ولا نحن ننقرض. فالى متى نحيي — ؟

« من عبودية المصريين إلى سبي بابل إلى قساوة الفرس

إلى خدمة الاغريقيين إلى استبداد الروم إلى مظالم المغول إلى مطامع الإفرنج فإلى أين نحن سائرون الآن ، وأي متى نبلغ جبهة العقبة — ؟

«من مقابض فرعون الى مخالب نبوختنصر إلى أظافر الاسكندر إلى أسياف هيرودس إلى براثن نيرون إلى أنياب الشيطان فإلى يد من نحن ذاهبون الآن وأي متى نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم — ؟

« بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم ، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم ، وبقوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم ، فحتى متى نبني القصور والصروح ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ، ونملأ الأهراء والخزائن ولا نأكل غير الثوم والكراث ، ونحوك الحرير والصوف ولا نلبس غير المسوح والأطمار .

« بخبثهم واحتيالهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة وأبعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبغّضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية ، ونتصارع

كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة »

« لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلّحوا الدرزي لمقاتلة العربي وحمّسوا الشيعي لمصارعة السني ونشطوا الكردي لذبح البدوي وشجعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي. فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم والى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة والى مَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله .

« أصغي أيتها الحرية واسمعينا ، التفتي يا أم ساكني الأرض وانظرينا فنحن لسنا أبناء ضَرّتك ، تكلمي بلسان فرد واحد منا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس . أيقظي بحفيف أجنحتك روحَ رجل من رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق وينير بلحظة خلايا الأودية وقمم الجبال، بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة بالدماء والدموع » .

« اسمعينا أيتها الحرية ، ارحمينا يا ابنة أثينا ، انقذينا يا أُخت رومة ، خلصينا يا رفيقة موسى ، أُسعفينا يا حبيبة محمد ، علمينا يا عروسة يسوع ، قوي قلوبنا لنحيي أوشددي

سواعد أعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح »

كان خليل يناجى السماء وعيون الفلاحين مُحدِقَةٌ به ، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته ، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه ، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه ، فكأنه أصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد . ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء « قد جمعنا هذا الليل فى منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار، وأوقفتنا المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضم كالفراخ تحت جناحى الروح الخالدة . فليذهبْ الآن كل منا إلى فراشه لينام مترقباً لقاء أخيه في الصباح »

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم الى كوخهما . فتفرق إذ ذاك الجمع وذهب كلٌّ الى بيته مفكراً بما سمعه ورآه شاعرا بملامس حياة جديدة فى داخل نفسه

ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج فى الاكواخ والقت السكينة وشاحها على تلك القرية وحملت الاحلام أرواح الفلاحين تاركةً روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل مرتعدة أمام ذنوبه متعذبة بين أنياب هواجسه .

٨

مر شهران وخليل يسكب سرائر روحه فى قلوب اولئك القرويين محدّثاً أياهم فى كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم، مصوراً لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين مرددا على مسامعهم أخبار الحكام القساة ، جاعلا بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الأزلية التي تقيد الأجرام ببعضها بعضا ، فكانوا يصغون إليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الأمطار ، ويرددون كلامه فى خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده أجساداً من محبتهم غير حافلين بالخوري الياس الذى أصبح يتزلف إليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ ، ويقترب منهم ليناً كالشمع بعد أن كان صلبا كالرخام .

أما الشيخ عباس فقد أصيب بعلة فى نفسه شبيهة بالجنون ، فكان يسير ذهابا وايابا فى رواق منزله كالنمر المسجون ، وينادى خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران

ويصرخ مستنجداً برجاله ، فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه واستبداده . ولما جاءت أيامُ الصوم وأعلنت السماء قدوم الربيع انقضت أيام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء فمات بعد نزاع موجع مخيف ، وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه ، وقد اختلفت آراء الفلاحين في سبب موته ، فكان بعضهم يقول قد اختلت شعوره فقضى مجنوناً وبعضُهم يقول قد سمم اليأسُ حياته عندما زالت سطوته فمات منتحراً . أما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بأنه مات خائفاً مرتاعاً . لأن شبح سمعان الرامي كان يظهر له مرتديا أثوابا ملطخة بالدماء ويقوده كُرهاً عند ما ينتصف الليلُ إلى المكان الذي وجد فيه مصروعاً منذ خمسة أعوام .

***

وأعلنت أيام نيسان لسكان تلك القرية سرائر الحب الخفية الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل

فتهللت وجوههم فرحاً ، ورقصت قلوبهم ابتهاجاً . ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي أيقظ قلوبهم إلى محيط أوسع وأرقى من وسطهم فطافوا يبشرون بعضهم بعضاً بصيرورته جاراً قريباً وصهراً محبوباً لكل واحد منهم .

ولما جاءت أيامُ الحصاد خرج الفلاحون الى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر ولم يكن الشيخ عباس هناك ليغتصب الغلة ويحملها إلى اهرائه ومخازنه بل كان كل من الفلاحين يستغل الحقل الذي فلحه وزرعه فامتلأت تلك الأكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت .

أما خليل فكان يشاطرهم الأتعاب والمسرات ويساعدهم بجمع الغلة وعصر العنب واجتناء الأثمار . ولم يكن يميز نفسه عن الواحد منهم إلا بمحبته ونشاطه .

منذ تلك السنة إلى أيامنا هذه أصبح كل فلاح في تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالأتعاب ، ويجمع بالمسرة أثمار البستان الذي غرسه بالمشقة . فصارت الأرضُ ملكاً لمن يفلحها ، والكرومُ نصيباً لمن ينقبها ويحرثها .

والآن وقد انقضى نصفُ قرن على هذه الحادثة ،

وراودت اليقظةُ أجفانَ اللبنانيين . يمر المسافر على طريقه إلى غابة الارز ويقف متأملا بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي فيرى أكواخها قد صارت بيوتا جميلة مُكْتَنَفَةً بالحقول الخصيبة والحدائق الناضرة ، وان سأل أحد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يُجيبه مشيرا نحو حجارة متقوضة وجدران مهدومة مرتمية قائلا « هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته » . وان سأله عن خليل يرفع يده إلى العلاء قائلا « هناك يسكن خليلنا الصالح أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرفٍ من شعاعٍ على صفحات قلوبنا فلن تمحوه الأيامُ والليالي »

﴿ تمت ﴾